ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 02 يوليو 2016

حول بعض أشكال التصنيف البدائية

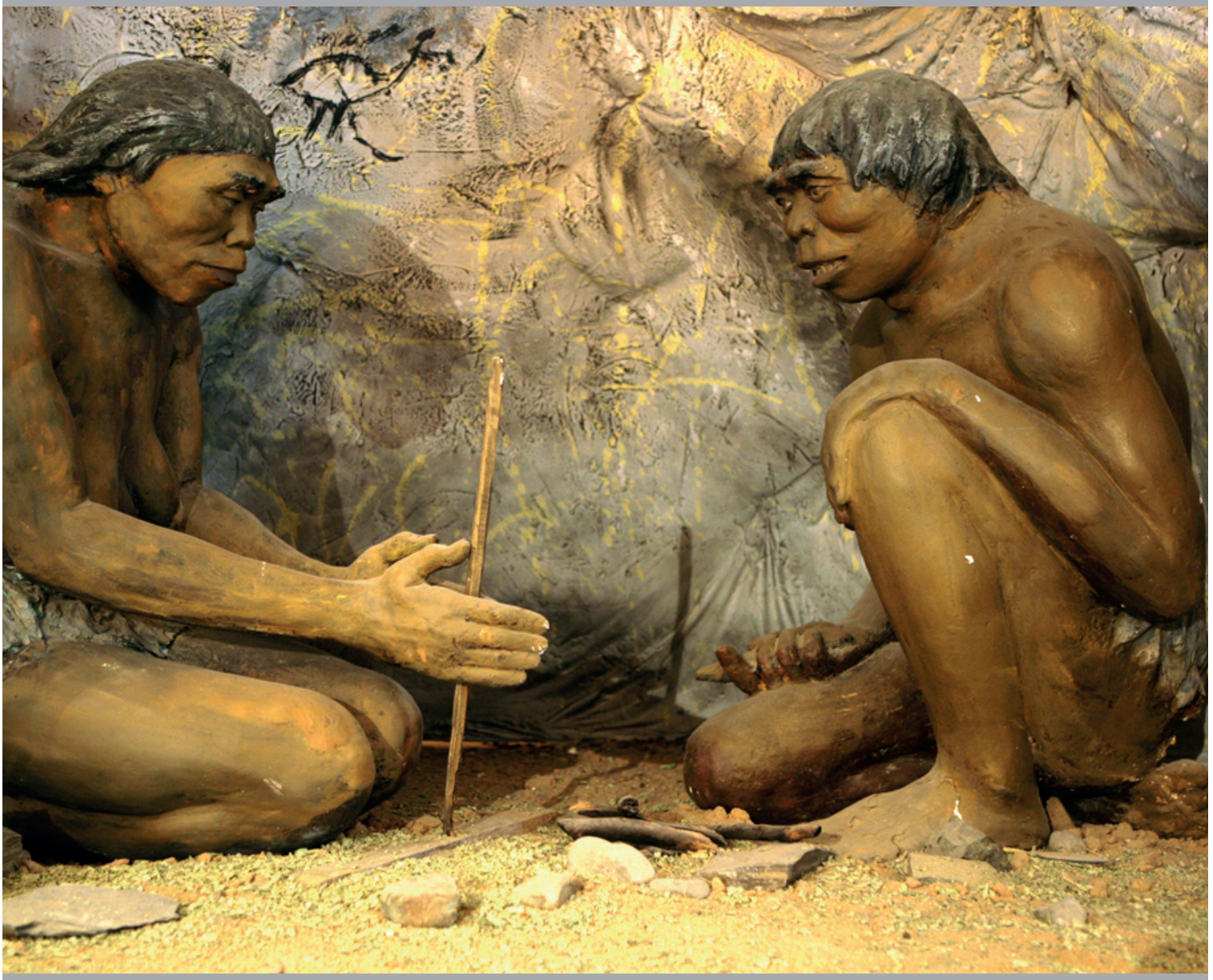

إميل دوركهايم ومارسيل موس
ترجمة: محمد هاشمي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016
All rights reserved © 2016

حول بعض أشكال التصنيف البدائية[1]

إميل دوركهايم ومارسيل موس

ترجمة: **محمد هاشمي**

1 نشر هذا النص في الأصل:

Émile Durkheim et Marcel Mauss, «De quelques formes de classification - Contribution à l'étude des représentations collectives». Année sociologique, VI, (1901-1902), pp. 1 à 72. Rubrique "Mémoires originaux". Les Presses universitaires de France. [Une édition numérique in: Les classiques des sciences sociales. http://classiques.uqac.ca/].

لقد أظهرت الكشوف السيكولوجية المعاصرة الوهم السائر، الذي يجعلنا نعتقد في بساطة وأولية عمليات ذهنية، بينما هي في الواقع بالغة التعقيد. لقد أصبحنا الآن على بينة من تعدد المكونات التي تشكل الإوالية التي بفضلها نبني تمثلاتنا للعالم الحسي، لنسقطها على الخارج، ثم نتموضع داخلها. بيد أنّ هذا العمل التفكيكي لمَّا يطبق على العمليات المنطقية بحصر المعنى، إلا في حالات نادرة. إذ إنّ ملكات التعريف، والاستنباط، والاستقراء ينظر إليها عمومًا باعتبارها معطيات مباشرة داخل تركيب الفاهمة الفردية. ومن المؤكد أنّنا نعرف منذ القدم بأنّ الناس تعلموا عبر التاريخ استعمال وظائفهم المتعددة أفضل فأفضل. لكن ذلك ما كان ليحدث من تغيرات مهمة، إلا فيما يخص كيفية الاستعمال، أما تعلقًا بملامحها الأساسية فقد تشكلت منذ كانت هناك إنسانية. لذلك ما خطر ببال أحد إمكان تشكل ذلك من خلال تجميع عناصر مستعارة من المصادر الأكثر تباينًا، والأكثر غرابة على المنطق، والتي تم تنظيمها بعناء شديد. وليست هذه بالفكرة الغريبة، مادامت صيرورة الملكات المنطقية اشتهرت بكونها صادرة عن السيكولوجية الفردية، وما دام لم تتوافر بعد الفكرة التي تجعلنا نرى في مناهج الفكر العلمي مؤسسات اجتماعية فعلية، وأنّها وحدها السوسيولوجيا في مُكنتها رسم مكوناتها وتفسيرها.

وتنطبق الملاحظات السابقة بشكل خاص على ما يمكن دعوته بالوظيفة التصنيفية، حيث إنّ المناطقة وعلماء النفس ينظرون في العادة إلى الإجراء الذي قوامه تصنيف الكائنات، والأحداث، ووقائع العالم إلى أجناس وأنواع، وإشمال إحداها تحت الأخرى، وتحديد علاقة التضمين أو الاستبعاد، كما لو أنّه إجراء بسيط وفطري، أو على الأقل متشكل بفعل القوى الفردية وحسب. ويعتبر علماء المنطق تراتب التصورات كما لو أنّها معطاة داخل الأشياء، وقابلة للتعبير عنها مباشرة من خلال السلاسل اللامتناهية للأقيسة. بينما يذهب علماء النفس إلى كفاية اللعب البسيط لترابط الأفكار، وقوانين التجاور والتناظر بين الحالات الذهنية، لتفسير تكتل الصور، وانتظامها على شكل تصورات، تصنف بعضها في علاقة ببعض. أجل قد ظهرت مؤخرًا نظرية أقل تبسيطيةً حول الصيرورة السيكولوجية. إذ انتشرت فرضية انجماع الأفكار لا حسب تلاؤمها المشترك، لكن أيضًا تبعًا للعلاقات التي تنسجها مع الحركات، لكن على الرغم من ذلك، ومهما كان من تفوق هذا التفسير، فهو لا يتخلى عن عرض التصنيف من حيث هو نتاج للممارسة الفردية.

مع ذلك توجد واقعة، تكفي لوحدها أن تظهر أنّ لهذه العملية أصولاً أخرى: لأنّ مسلكنا في إدراك التصنيف وممارسته يظل حديث عهد نسبيًا. ذلك أنّ فعل ترتيب الأشياء هو بالنسبة إلينا، عملية تنظيمها في مجموعات متميزة بعضها عن بعض، ومفصولة من خلال خطوط فارقة محددة بشكل بيِّن، وهذا ما ينفيه التطوريون المعاصرون الذين لا يرون بين الأشياء ما هو غير قابل للتجاوز، وإن كان هذا التقارب لا يصل إلى حد الخلط بينها، وادعاء حق اختزال بعضها لبعض، يوجد في عمق تصورنا للصنف فكرة القطاع ذي الحوافي الدقيقة، ومن المعلوم أنّ تصورًا من هذا القبيل، لا يتأصل أبعد من أرسطو، إن جاز القول. فقد كان أول من طالب بوجود اختلافات دقيقة ومحددة وواقعيتها، مثبتًا أنّ الحد الوسط هو علة ذلك، وأن لا وجود

لسبيل مباشر بين جنس وآخر، بينما كان أفلاطون أقل استشعارًا لهذا التمييز ولهذا التنظيم التراتبي، لأنّ الأجناس بالنسبة إليه على نحو ما متجانسة وقابلة لأن يختزل بعضها بعضًا من خلال الجدل.

إنّ تصورنا الحالي للتصنيف لا يتوفر على تاريخ فقط، بل أيًضا على ماقبل-تاريخ هائل. فمهما قلنا لن نبالغ في وضعية الاختلاط واللاتمييز التي انطلق منها العقل الإنساني. بل في راهننا نفسه هناك جزء كبير من أدبياتنا الشعبية، ومن أساطيرنا وأديانا يقوم على خلط أساسي لكل الصور والأفكار، فليس بينها إن شئنا القول، ما ينفصل بوضوح عن الأخرى. الاستعارات، ونقل الصفات، ومعاوضة الأشخاص، والأرواح والأجساد، والمعتقدات المتعلقة بتجسيد الأرواح، وروحنة الموضوعات المادية، كل ذلك يمثل عناصر للفكر الديني والفلكلوري. وهكذا إنّ فكرة الاستحالات transmutation ما كان لها أن تتشكل لو أنّ التصورات كانت محددة ومصنفة. وتعد عقيدة التحول القرباني المسيحي نتيجة لحالة الذهن هذه، التي يمكن اعتمادها لإثبات قابليتها للتعميم.

لا تصمد مع ذلك هذه الذهنية داخل المجتمعات الأروبية إلا على شكل مخلفات من الماضي، وحتى في هذه الحالة لا نصادفها إلا داخل بعض وظائف الفكر الجمعي، وهي متموضعة بشكل جلي. لكن هناك مجتمعات كثيرة حيث كل التاريخ الطبيعي بالنسبة إليها يكمن في الحكايات التعليلية، وتوجد في الاستعارات كل تأملاتها حول الأنواع النباتية والحيوانية، وكذلك يتجلى ذلك في الأدوار النبوئية، والدوائر والمربعات السحرية كل الاستشرافات العلمية. لم تكن التصورات المتعلقة بالانجذاب التعاطفي، أو التوافق الرمزي، أو التأثيرات الفلكية، سواء في الصين أو في الشرق الأقصى، ومجموع الهند المعاصرة، أو في اليونان وروما القديمة، منتشرة فقط وما تزال، بل إنّها ما فتئت تستنفذ العلم الجمعي. وكل ذلك قائم على الاعتقاد في التحول الممكن للأشياء الأكثر تنافرًا، بعضها إلى بعض، وبالتالي على الغياب الكامل تقريبًا للتصورات المحددة.

وإذا ما انحدرنا نحو المجتمعات الأقل تطورًا التي لدينا معرفة بها، تلك التي يدعوها الألمان مستعملين مفردة فضفاضة بعض الشيء[1] NaturvolkerK فسنجد التباسًا أكثر جلاءً، فهاهنا يفقد الفرد نفسه شخصيته، بحيث يصبح عدم التمييز بينه وبين روحه الخارجية، وبينه وبين طوطمه مكتملاً. إنّ شخصيته وحيوانه القرين Fellow-animal يصبحان واحدًا. ويبلغ التقمص مبلغًا يجعل الإنسان يتخذ صفات الشيء أو الحيوان القريب منه، في مابويا[2] mabuiag على سبيل المثال ينظر إلى سكان قبيلة التماسيح على أنّهم يتسمون بطبع هذا الحيوان؛ فهم معتدون بأنفسهم، قساة، ودائمًا على أهبة الحرب. أمّا لدى قبيلة سيو[3] sioux فهناك جانب منهم يدعون بالحُمْر يضم عشيرة أسود الجبل، والثيران، والظباء، وكل الحيوانات المتميزة

[1] 1

2 إحدى الجزر الأسترالية.

3 إحدى قبائل الهنود الحمر.

بغرائزها العنيفة؛ وأعضاء هذه العشائر منذ مولدهم هم رجال حرب، بينما المزارعون هادئون بالطبع، وينتمون إلى عشائر طوطيماتها هي بالأساس حيوانات مسالمة.

إن كان هذا حال الناس، فبالأولى هو حال الأشياء. فليس هناك فحسب عدم تمييز مطلق بين العلامة وبين الشيء، وبين الاسم وبين الشخص، والأماكن والسكان، لكن هناك أيضًا وحسب ملاحظة صائبة أبداها فو ندن شتاينن von den steinen حول الباكيري والبوروروس Bakairis et Bororos[4] "إنّ مبدأ التوالد المختلط generatio oequivoca ثابت لدى البدائي"، فعن حسن نية يتخيل فرد قبيلة البورورو أنّه بذاته أرارا، أو على الأقل، إذا ما كان يتوجب عليه أن يأخذ صورتها المتميزة بعد موته، فهو في هذه الحياة بالنسبة إلى الحيوان ما تمثله الدودة للفراشة. وبصدق أيضًا يشتهر أعضاء قبيلة الترومي Trumai[5] بأنّهم حيوانات مائية. "يفتقد الهندي تحديدنا للأجناس بعضها إزاء بعض، المانع لها من الاختلاط" لقد تم في البدء تصور الحيوانات والناس والجماد، كما لو أنّها تتداخل في علاقات تماه كامل بينها. فالوشائج بين البقرة السوداء والمطر، وبين الحصان الأبيض وبين الأحمر والشمس، هي سمات مميزة للتراث الهندو-أروبي؛ ويمكننا أن نضاعف الأمثلة في هذا الصدد إلى ما لانهاية.

وفضلاً عن ذلك، لا تختلف هذه الحالة الذهنية كثيرًا، عن تلك التي تُمثل إلى الآن وبالنسبة إلى كلّ جيل نقطة انطلاق التطور الفردي. حيث لا يظهر الوعي إلا تيارًا متصلاً من التمثلات التي ينحل بعضها في بعض، وحينما تبتدئ التمييزات بالظهور، تكون جميعها متشذرة. هذه على اليمين وتلك على اليسار، هذا من الماضي وهذا من الحاضر، تلك تشبه ذلك، وهذه ترافق هذه، هو ذا كل ما يستطيع أن ينتجه الراشد نفسه، لولا أن ترسخ فيه التربية طرائق تفكير ما كان ليصل إليها أبدًا بجهده الخاص، وهي طرائق جاءت ثمرة تطور تاريخي. ويبدو لنا جليًا البون بين هذه التمييزات والتجميعات الأولية، وبين ما يشكل فعلاً تصنيفًا.

لقد مارس الإنسان التصنيف في البداية بشكل تلقائي، بفعل ضرورة طبيعية، فقد كانت الإنسانية مفتقدة لشروط هذه العملية. ويكفي بالمناسبة تحليل فكرة التصنيف ذاتها لكي ندرك أنّه ليس بمقدور الإنسان أن يجد في ذاته عناصره الأساسية. إنّ الصنف، هو مجموعة من الأشياء؛ الحال أنّ الأشياء لا تمثُل من ذاتها للملاحظة، مصنفة على هذه الشاكلة. فبمقدورنا أن ندرك إلى حد ما وبشكل غير واضح تماثلاتها. لكن ذلك لن يكون كافيًا لتفسير المسلك الذي انتهى بنا إلى تجميع الكائنات المتشابهة على هذا النحو، ووضعها في نوع من المجال المثالي، ونسيجها في حدود دقيقة، ندعوها جنسًا أو نوعًا..إلخ. لاشيء يجيز لنا أن نفترض توفر عقلنا منذ الولادة، على هذا النموذج المرجعي للإطار الأولي لكل تصنيف. أجل، تساعدنا الكلمة بدون شك على إضفاء مزيد من الوحدة والاتساق للتجميع الذي يتشكل على هذا النحو؛ لكن إذا كانت الكلمة وسيلة لإنجاز أفضل للتجميع حينما نكون على بينة من إمكان ذلك، فليس في مكنتها أن تقترح علينا الفكرة ذاتها.

4 كرايبين قدامى، الآن يتواجدون في كزينغو – المؤلف-

5 إحدى العشائر البرازيلية.

التصنيف من جانب آخر، ليس مجرد إنشاء للمجموعات- وإنّما ترتيبها حسب علاقات خاصة. إنّنا نتمثلها متناسقة ومتعالقة بعضها مع بعض، فنقول إنّ هذه [الأنواع] متضمنة في تلك [الأجناس]، إنّ هذه الأخيرة تشتمل الأولى. فهناك ما يسيطر، وهناك ما يسيطر عليه. وهناك ما هو مستقل عن الآخر. فكل تصنيف يتضمن نظامًا تراتبيًا لا يمكن لا للعالم ولا لوعينا أن يقدم لنا مثاله النموذجي. فهناك إذن مجال لأن نتساءل من أين استمددنا ذلك. بل إنّ العبارات نفسها التي نستعملها لتوصيفه تسمح لنا بافتراض أنّ كل التصورات المنطقية تتأصل فيما هو خارج- منطقي extra-logique. فنحن نقول إنّ هناك علاقة قرابة بين أنواع جنس ما، كما ندعو بعض الأصناف بالعائلات؛ ثم أليست مفردة جنس نفسها تشير في الأصل إلى مجموعة عائلية genos؟ كل هذه الوقائع تميل إلى جعلنا نخمن بأنّ خطاطة التصنيف ليست نتاجًا عفويًا لفاهمتنا المجردة، وإنّما هو نتيجة عمل تضافرت فيه عناصر غريبة من كل صنف.

ومن البين أنّ موضوع هذه الملاحظات الأولية، ليس حل المشكل، ولا حتى الافتراض المسبق لمثل هذا الحل، بل هي تروم فقط أن تشير إلى وجود المشكل الذي يتوجب أن نطرحه. فأولى بنا عوض الاستناد إلى يقينية اعتبار الناس يصنفون على نحو طبيعي، من خلال نوع من الضرورة الداخلية لفاهمتهم الفردية، يلزمنا عل العكس، أن نتساءل عما أدى بهم إلى تنظيم أفكارهم على هذا الشكل، وأين وجدوا التصميم المميز لهذا التنظيم. وسؤال لا يخطر بخيالنا حتى، أن نتناوله في امتداداته. ولكن، وبعد طرحنا إياه، نود أن نوفر مجموعة من المعلومات، التي هي في رأينا قادرة على أن تضفي عليه بعض الوضوح. وفي الواقع إنّ المسلك الوحيد الكفيل بالإجابة على ذلك السؤال، هو بحث التصنيفات البدائية التي قام بها بنو الإنسان، وذلك لأجل التعرف على العناصر التي شكلت عبرها. لذلك سوف نورد في ما يلي مجموعة من التصنيفات التي هي بالتأكيد بالغة البدائية، لكنها ذات دلالة واضحة، ولا تبدو ملتبسة.

إنّ السؤال الذي نحن بصدده لم يطرح في الأزمنة التي أشرنا إليها، لكن من ضمن الوقائع التي سنستعملها في إطار هذا العمل، هناك ما تمت الإشارة إليه ودراسته مسبقًا من طرف بعض الكُتاب. فقد اشتغل السيد باستيان M.Bastian في مناسبات عديدة، بتصورات كوسملوجية عامة محاولاً في الغالب أن يضفي عليها أشكالاً من النسقية. لكنه ارتبط أكثر بكسملوجيات الشعوب الشرقية وتلك المتعلقة بالعصور الوسطى، عاملاً في الغالب على تعداد الوقائع التي كان يبحث عن تفسيرها. أما بالنسبة إلى التصنيفات الأكثر بدائيةً فقد أعطى السيد هويت M.Howitt ثم من بعده السيد فرازر M.Frazer أمثلة عديدة. لكن لا أحد من بينهما استشعر أهميتها من منظور تاريخ المنطق. وسنرى كيف أنّ التأويل الذي يقدمه فرازر لهذه الوقائع هو بالضبط عكس ما نقترح.

I

إنّ أنظمة التصنيف الأكثر بساطة، والتي لدينا معرفة بها، هي تلك التي نلاحظها لدى القبائل الأسترالية.

فنحن على علم بنوع التنظيم الأكثر انتشارًا في هذه الضروب من المجتمعات. فكل قبيلة تتفرع إلى قسمين كبيرين ندعوها فروعًا Phratrie[6]. كل فرع بدوره، يشمل مجموعة من العشائر، أي مجموعة من الأفراد يحملون الطوطم نفسه. ومبدئيًا لا يوجد طوطم فرع في الفرع الآخر. وبالإضافة إلى هذا التقسيم للعشائر، كل فرع يتشعب إلى أقسام ندعوها قرانية matrimoniales. وذلك لأنّ موضوع هذا التنظيم هو قبل كل شيء تدبير الزيجات: فلا يجوز لقسم محدد من فرع أن يتعاقد على الزواج إلا مع قسم محدد من الفرع الآخر. وهكذا يأخذ التنظيم العام للقبيلة الشكل التالي.

الفرع1	القسم القراني أ	عشيرة الإمو - طائر أسترالي -
	القسم القراني ب	عشيرة الثعبان عشيرة الدودة إلخ..
الفرع 2	القسم القراني أ-	عشيرة الكنغر
	القسم القراني ب-	عشيرة الأبسوم [حيوان أمريكي] عشيرة الغراب[7]

الأقسام المشار إليها بالحرف نفسه (أ، أ-، ب، ب) هي تلك التي بينها علاقة قران connubium.

وهكذا كل أعضاء القبيلة يجدون أنفسهم مصنفين داخل أطر محددة، يندمج بعضها في بعض. كما أنّ تصنيف الأشياء يعيد إنتاج التصنيف نفسه الخاص بالناس.

وقد سبق للسيد كميرون M.Camiron أن لاحظ بأنّه عند قبيلة تاتاثيس Ta-ta this[8]: كل أشياء الكون موزعة حسب الأعضاء المختلفين للقبيلة". "بعضهم ينسب إلى نفسه الأشجار، وبعضهم الآخر السهول، بعضهم السماء، الريح، المطر وهكذا دواليك" لكن للأسف هذه الإفادة تفتقد إلى الدقة، فهي لا تخبرنا لأي

6 نعرف بأنّ هذا المصطلح لم يتم الأخذ به من طرف جميع المؤلفين، إنّ الأكثرية يفضلون استعمال كلمة أقسام. وهو ما ينجم عنه التباسات مؤسفة مع الأقسام القرانية matrimoniales والتي ستكون موضوعًا لنا فيما يلي. لأجل تجنب هذه الأخطاء، في كل مرة يدعو ملاحظ قسما ما هو فرع، نعوض الكلمة الأولى بالثانية. ووحدة الاصطلاح تجعل فهم الوقائع ومقارنتها سهلاً. ومن المستحب أن نتوافق بشكل نهائي على المصطلحات التي تستعمل كثيرًا.

7 هذه الخطاطة لا تمثل سوى التنظيم الذي نعتبره نموذجيا. وهو الأكثر عمومية. لكنّنا لانجده في حالات كثيرة إلا متغيرًا. وفي هذه الحالة، الاقسام الطوطمية ذات عشائر تعوض بمجموعات محلية، وعندئذ لا نجد فروعًا ولا أقسامًا. بل علينا إذا ما صبونا إلى أن نستوفي الأمر بشكل كامل، أن نضيف تقسيمًا إلى مجموعات محلية يتراكب في الغالب مع التقسيمات السابقة.

8 J.A., XIV, 350. - Notes on some tribes of new south wales-

ولم يقل بالمناسبة أنّ ذلك يهم فقط هذه القبيلة بل إنّ الفقرة السابقة تشير إلى مجموعة من القبائل.

مجموعة من الأفراد تعود وتنسب مجموعات الأشياء[9] لكننا نتوفر على وقائع بقوة استدلالية مغايرة، وعلى وثائق مهمة للغاية.

ينقسم قبائل نهر بيلنغرBellinger إلى فرعين؛ وهو تقسيم حسب السيد بالمر M.Palmer ينطبق أيضًا على الطبيعة "فكل الطبيعة تنقسم حسب أسماء فروع القبيلة، كما أنّ الأشياء توصف بالذكورة والأنوثة. إنّ الشمس والنجوم رجال ونساء ينتمون إلى هذا الفرع أو ذاك، على نفس منوال الزنوج أنفسهم". وهذه القبيلة تجاور بشكل قريب قبيلة أخرى، في ميناء ماكاي في كويين لاند، حيث نجد نظام التصنيف نفسه. وحسب الرد الذي قدمه السيد بريدمان Bridman على أسئلة دو كور DE CURR وسميث Br smyth ولوغيمي فيزون Lorimer faison، فإنّ هذه القبيلة وكذلك تلك المجاورة لها تضم فرعين، أحدهما يدعى يونغارو Yungaroo، والآخر ويتارو Wutaroo. هناك أيضًا أقسام قرانية؛ لكن لا يبدو أنّها أثرت في التصورات الكوسملوجية. على عكس تقسيم الفروع الذي يعتبر "قانونًا كونيًا للطبيعة". "فكل الأشياء الحية والجامدة، يقول كور حسب بريدغمان، تنقسم لدى هذه القبائل إلى قسمين يدعيان يونغرو وويتارو" إنّهم يقتسمون الأشياء فيما بينهم، يروي الشاهد نفسه (سميث). فيقولون إنّ التماسيح يونغرو بينما الكناغر ووترو. الشمس يونغرو، والقمر ووترو، وهكذا دواليك بالنسبة إلى الأشجار، والنباتات، إلخ.. "أما فيزون فيقول: "كل الشيء في الطبيعة يتوزع حسب رأيهم بين الفرعين.الريح يعود إلى فرع، الشتاء إلى الآخر... وإذا ما ساءلناهم على نجمة بعينها، فسيردون بتنسيبها إلى فرع محدد".

ويتميز تصنيف من هذا القبيل بتبسيطية بالغة نظرًا لطبيعته الثنائية. فكل شيء يرتب داخل فئتين يقابلان فرعي القبيلة. ويصبح النظام أكثر تعقيدًا حينما لا تقوم القسمة فقط على أساس الفرعين، وإنّما تعتمد قسمة رباعية ترتكز على الأقسام القرانية التي تستعمل إطارًا لتوزيع الكائنات. وهي حالة قبيلة الواكيلبورا Wakulbura بكوينلاند الشمال الأوسط. فقد أرسل السيد موريهيد M. Muurhead في مناسبات عديدة، وهو معمر أقام طويلاً في هذا البلد، ومراقب ثاقب النظر، إخباريات لكوور وهوييث حول نظام هذا الشعب وكسمولوجيته، وهذه المعلومات التي يمكن أن تنسحب على عدة قبائل، تم تعزيزها وتأكيدها من طرف شاهد آخر السيد. لوو.M.Ch low مفادها أنّ الواكيلبورا يتوزعون على فرعين: ماليرا Mallera وفيترو Wutarau؛ كل منهما ينقسم بالإضافة إلى ذلك إلى قسمين قرانيين. يحمل قسما الفرع الأول اسمي كورجيلا kurgila وبانهي banhe أمّا الثاني فيدعى قسماه فونغو wungo واوبو obu. ويقسم هذان الفرعان والقسمان المتعلقان بهما "كل الكون إلى مجموعات". "الفرعان، يقول هويت، هما الماليرا والفيترو، وبالتالي كل الموضوعات هي إما الفرع الأول أو الثاني" وهو نفسه ما يورده كوور "الطعام الذي يأكله البانبي banbey والكارجيلا، يدعى موليرا، والذي يأكل من طرف الفونغو Wongoo أو الأبو يسمى فوتيرا" لكننا نجد بالإضافة إلى هذا ترتيبًا حسب الأقسام القرانية "فبعض الأقسام وحدها مسموح لها أكل

9 ويبدو الأمر مع ذلك متعلقًا بتوزيع حسب مجموعات طوطمية، تناظر تلك التي سندرسها لاحقًا، لكن ذلك لا يعدو أن يكون افتراضًا.

بعض أنواع الطعام. وهكذا يجوز للبانبي تحديدًا أكل الأبسوم والكونغرو ولحم الكلب، وعسل النحل الصغير، ... إلخ أما الفونغو فمباح لهم وحدهم أكل الإيمو، البانيدوت، البط والثعبان الأسودين، والثعبان البني، ...إلخ. بينما يتناول الأوبو أنواعًا خاصة من ثعابين البيتون - tapis - وعسل النحل اللاسع، .. إلخ. ويعيش كارجيلا على الشياهم، الحبشي البري..، زيادة على ذلك تعود إليهم ملكية المياه، الأمطار، النار والرعد. وهناك أنواع كثيرة من الأطعمة، مثل السمك، والطرائد ذات الوبر وذات الريش، لم يخض موريهيد في عملية توزيعها"[10]

ويصح القول إنّ بعض الشكوك تحوم على الأخبار التي وصلتنا حول هذه القبيلة. فحسب السيد هويث، قد يغلب الظن على أنّ التقسيم ارتكز على الفروع وليس على أساس الأقسام الاقترانية. في الواقع كل الأشياء المخصصة للبانبي وللكارجيلا، يمكن أن تنسب إلى الماريلا. لكن التعارض في الظاهر فقط، بل هو مفيد أيضًا. إنّ الفرع هو الجنس، والقسم الاقتراني هو النوع؛ الحال أنّ الاسم الخاص بالجنس يناسب النوع، لكن هذا لا يفيد أنّ النوع لا يتوفر على اسمه الخاص. على غرار القط الذي ينتمي لذوات القوائم الأربع، ويمكنه أن يدعى بهذا الاسم، إنّ أشياء النوع عند الكارجيلا تستخلص من الجنس الأعلى لدى الماليرا (الفرع) ويمكنها تبعًا لذلك، أن تدعى هي نفسها ماليرا. وهذا دليل على أنّنا لسنا بصدد ثنائية بسيطة للأشياء تقسم الأشياء إلى جنسين متضادين، وإنّما داخل كل من هذه الأجناس، نكون إزاء تضمين لتصورات متراتبة.

إنّ أهمية هذا التصنيف هي بمكان، تجعله يمتد على كل وقائع الحياة؛ إذ نجد أثره في جميع الطقوس الأساسية. ولذلك لا يستطيع ساحر ينتمي لفرع الماليرا أن يستعمل في فنه سوى الأشياء التي هي نفسها ماليرا. فأثناء عملية الدفن يشترط في السقالة حيث تتمدد الجثة (دائمًا مع افتراض أنّ الأمر يتعلق بماريلا) "ينبغي أن تكون السقالة من خشب شجر ينتمي إلى فرع الماريلا" والأمر نفسه بالنسبة إلى الفروع التي تغطي الجثة. أما إذا تعلق الأمر بعضو في البانبي، فينبغي أن نستعمل الشجرة ذات الأوراق الكبيرة؛ لأنّ هذه الشجرة هي ذاتها بانبي؛ وسيقوم بإتمام طقس الجنازة رجال من الفرع نفسه. تنظيم الأفكار نفسه يُتوسل أساسًا للتنبؤات؛ إذ انطلاقًا من وضع هذا التنظيم مقدمةً، نؤول الأحلام، ونحدد الأسباب، ونضع المسؤوليات. ومن المعلوم أنّ الموت في جميع هذه المجتمعات، لا يعد حدثًا طبيعيًا، يرجع لفعل أسباب فزيائية خالصة؛ بل إنّه ينسب في الغالب إلى التأثير السحري لساحر ما، وتحديد المجرم يمثل جزءًا من الطقوس الجنائزية. وهكذا إنّ تصنيف الأشياء لدى فاكيلبورا حسب الفروع والأقسام الاقترانية، هو ما يوفر وسيلة الكشف عن

---

10 Curr, australian Race, III ? P.27.

نلاحظ أنّ كل فرع أو قسم يبدو بأنّه يستهلك لحم الحيوانات المرصودة له، الحال أنّه ينبغي العودة إلى هذه النقطة، لأنّ للحيوانات عمومًا الموزعة على فرع أو قسم طابعًا طوطميًا وبالتالي يمنع أكلها على مجموعات الأفراد الذين أسندت إليهم.هل يمكن أن تكون الواقعة المضادة التي وصلتنا عن الواكلبورا تمثل حالة استهلاك طقوسي للحيوان الطوطمي بالنسبة إلى المجموعة الطوطمية المقابلة له ؟ لا نستطيع البت في ذلك، ربما يوجد أيضًا في هذه الملاحظة خطأ في التأويل، وهو خطأ وارد جدًا في أمور بهذا التعقيد وبهذه الصعوبة في التقويم. وفي الحقيقة إنّه لأمر لافت للنظر بأنّ طوطيمات فرع الماليرا وحسب اللوحة التي تقدم لنا، هي الأبسوم، والحبشي الوحشي، والكونغر، والنحل الصغير، أي كل الحيوانات التي على وجه التحديد يسمح للقسمين القرانيين لهذا الفرع باستهلاكها، أقصد كورجي والبانبي

القسم الذي ينتمي إليه المسؤول عن الموت، أو ربما الفاعل نفسه. فتحت السقالة حيث يسجى الجسد وحواليه، يسوي المحاربون الأرضية بعناية، على شاكلة تجعل أي أثر مهما كان خفيفًا ظاهرًا للعيان. وفي الصباح الموالي يفحصون بتركيز الأرضية تحت الجثة. فإذا ما مر حيوان من هنا، نكشف بسهولة آثاره؛ ويستنتج الزنوج من خلالها الفرع الذي ينتمي إليه الشخص المسؤول عن موت قريبهم، فإذا ما وجدت آثار كلب بري، يتبينون أنّ القاتل ماريلا وبانبيا، لكون هذا الحيوان ينتمي إلى هذا الفرع وهذا القسم.

زيادة على ما سبق، إنّ هذا النظام المنطقي بالغ التصلب، لكون السلطة الملزمة العقل الأسترالي بهذه المقولات هي من القوة، بحيث نجد مجموعة كاملة من الأفعال، والعلامات، والأشياء تنتظم حسب هذه المبادئ. فحينما تكون مراسيم تأهيل على وشك التنظيم، تعمل المجموعة المحلية التي تتخذ المبادرة لاستدعاء مجموعات محلية أخرى تنتمي إلى العشيرة الطوطمية نفسها، منبهة إياها من خلال إرسال "عصا رسالة" والذي ينبغي أن ينتمي إلى فرع المرسل والحامل للعصا نفسه. هذا التناسب الإلزامي لا يبدو في ظاهره ذا أهمية فوق العادة، على اعتبار الدعوة إلى موسم تأهيل داخل معظم أستراليا تتم من خلال رسول حامل "للشياطين" (أو bull-roar, turndum, churinga) والذين هم ملكية لكل القبيلة، ومن ثمة لقسم صاحب الدعوة وللقسم المدعو. لكن القاعدة نفسها تنطبق على الرسائل المخصصة لتعيين موعد صيد، وهنا، المرسل والمرسل إليه، والرسول، وخشب الرسالة، والطريدة المحددة، واللون الذي رسمت به، كل ذلك يتناسب بصرامة وفق المبدإ الذي وضعه التصنيف. هكذا وفي مثال نقله هويت، أرسل عصاً من طرف أحد أفراد قبيلة الأوبو. وتبعًا لذلك، فقد كانت العصا من الجيديا، وهو نوع من الأكاسيا التي تنتمي إلى فرع فوترو التي ينتمي إليها الأوبو. وكان الإيمو والوالابي هي الطرائد المرسومة على العصا، وهي حيوانات تنتمي إلى الفرع نفسه. كما أنّ لون العصا كان أزرق، ربما للمبررات نفسها. وهكذا تتسلسل كل العناصر على شاكلة نظريةٍ: المرسل، المرسل إليه الموضوع وكتابة الرسالة، الخشب المستعمل، كلها أشياء ذات قرابة. وجميع هذه التصورات تبدو للبدائي محكومة ومترابطة حسب ضرورة منطقية.[11]

وهناك نظام تصنيف أكثر اكتمالاً وقد يكون أكثر تميزًا، وهو ذلك الذي لا تتوزع الأشياء داخله حسب الفروع والأقسام القرانية، وإنّما على أساس الفروع والعشائر أو الطوطيمات. "إنّ للطوطيمات الاسترالية،

11 لقد قال السيد مويرهيد صراحة إنّ هذا المسلك في التصرف متبع من طرف القبائل المجاورة. وربما علينا أن نربط بنظام فاكيلبورا هذا الوقائع التي أوردها السيد روث Roth حول قبيلة البيتا بيتا، وكالكادون kalkadon والماتيكودي matikodi والفونامورا woonamura، وهم جميعًا جيران فاكيلبورا(, cf proceed R. society queensland 1897 ethnological studies among the nord west central queensland.58-t 1897,pp.57 aborigines"") كل قسم قرانيلديه سلسلة من المحرمات الطعامية بحيث " كل طعام في متناول القبيلة مقسم بين أعضائه " لنأخذ على سبيل المثال بيتا بيتا. لا يستطيع أفراد قسم الكوبورو سحلية الإيغوان، أو الدنغو الأصفرو لا السمكة الصفراء الصغيرة، ". الفونغوكو wongoko عليهم تجنب حبشي الأدغال، البونديكوت – نوع من القوارض-، النسر البازي، الدينغو الأسود طائر البط " التام البياض "..؛ ويمنع على الكوركيلا الكنغور وثعبان التابيس، السرطان، البط ذو الرأس الأسود والبطن الكبير، ومختلف الطيور الغطاسة... كما يمنع البونبوري الايمو، والثعبان الأصفر، وبعض أنواع العقاب، ونوع من طائر البيغاء، في كل الأحوال نجد هنا مثالاً للتصنيف الذي يمتد على الأقل على مجموعة محددة من الموضوعات، يتعلق الأمر بمنتوجات الصيد، وهذا التصنيف يتخذ نموذج ذلك المتعلق بقبيلة مشكلة من أربعة أقسام قرانية، " أو مجموعات شبه قرانية " مثلما يقول كاتبنا. الذي لا يبدو أنّه بحث حول ما إذا كان هذا التصنيف ينسحب على الأشياء الطبيعية.

يقول فيزون Fison، قيمتها كل واحد على حدة، بعضها لا يتوزع فقط الإنسانية بل الكون أجمعه من خلال ما يمكن دعوته القسمة الشركية GENTILICES" ولهذا سبب بسيط، مفاده أنّه إذا كانت الطوطمية من جهة ما، تجمعًا للناس في إطار عشائر تبعًا للموضوعات الطبيعية (الأنواع الطوطمية المترابطة)، فهي أيضًا تجمع لموضوعات طبيعية حسب التجمعات الاجتماعية. "إنّ المتوحش الجنوب أسترالي، يقول المراقب نفسه، يعتبر الكون قبيلة كبيرة، ينتمي هو إلى أحد أقسامها، وكل الأشياء، الحية والجامدة، المنتمية إلى مجموعته هي أطراف جسد (body corporate) هو جزء منه، إنّهم على إطلاق أجزاء من جسده"، مثلما يلاحظ في حصافة السيد ستيوارت M Steawart.

والمثال الأكثر شهرة لهذه الوقائع هو ما لفت إليه انتباهنا تبعًا فيزون وسميث وكوور، واندرو لانغ بفراتزرFrazer، ويرتبط بقبيلة جبل غامبيا Mont-Gambia، وقد كان ستيورت هو من نقل هذه الأخبار، وهو من عرف هذه القبيلة عن قرب. وهي تنقسم إلى فرعين يدعى الأول كوميت kumite والآخر كروكي kroki: وهي أسماء بالمناسبة منتشرة كثيرًا في جنوب أستراليا حيث تستعمل للمعنى نفسه. وكل من هذه العشائر تنقسم إلى خمس عشائر طوطمية ذات ارتباط بقرابة الأرحام. وتوزع الأشياء داخل هذه العشائر، ولا يجوز لأي عشيرة استهلاك شيء ينسب إليها "فلا يقتل المرء ولا يتناول أيًا من الحيوانات التي تنتمي إلى شعبته القبلية نفسها" لكن بالإضافة إلى حرمة هذه الأنواع الحيوانية والنباتية أيضًا، هناك كم لامحدود من الأشياء المختلفة المرتبطة بكل قسم على حدة.

"ينقسم كل من فرع الكوميت والكروكو إلى خمسة أقسام ثانوية (ما يمكن دعوته بالعشائر الطوطمية) تنتظم تحتها (كذا) بعض الأشياء التي تسمى بطومان tooman (والتي تعني لحم أو wingo التي تعني أصحاب) وكل أشياء الطبيعة تنتمي إلى إحدى هذه العشائر العشر" ويشير كوور إلى بعض من هذه الأشياء المصنفة، لكن على سبيل المثال.

أول[12] طوطيمات الكوميت هو المولا mula[13] أو الصقر القناص؛ تنسب إليه، وحسب عبارة فيسون وهويت، يتضمن ذلك أيضًا الدخان، ونبتة صريمة الجدي، والأشجار..إلخ[14]

الثاني يتعلق بالبارنغال أو البجع الذي ترتبط به أشجار الغابة السوداء، الكلاب، النار، الجليد، .. إلخ

الطوطم الثالث هو الوا wa أو الغراب، تندرج تحته الأمطار، الرعد، البرق، والبرَد، والسحاب، .. إلخ.

12 عبارة أول لا ينبغي أن تجعلنا نعتقد بوجود تراتبية بين العشائر. فالترتيب ليس هو نفسه عند فريسون وعند كورر

13 إسم كل طوطم يكون مسبوقًا ببادئة burt أو boort التي تعني "جاف"، نسقطها من هذه اللائحة.

14 هذه النقط تفيد أنّ قائمة الأشياء المدرجة غير قابلة للحد

الطوطم الرابع يدعى ويلا wila مقدمة الصاري الأسود، الذي ترد إليه النجوم، والقمر، ... إلخ

وأخيرًا طوطم الكراطو karato (أفعى غير سامة) تنسب إليه الأسماك، شجرة الخيوط، سمكة السومون، الفقمة، ... إلخ

ولدينا معارف أقل حول فرع الكروكي، إذ لا نعرف سوى ثلاثة طوطيمات، أولاً فيريو werio (شجرة الشاي) ترتبط بها طيور البط، والوالابي wallabies يتعلق بها الدجاج، جراد البحر، .. إلخ، أما طوطيم المرونا (نوع من الجدور القابلة للاستهلاك[15]، كلب الصيد، الدولفيش (نوع من صغار الكنغر)، طيور السمان...، طوطم كارال karaal (مقدمة الصاري الأبيض، دون ذروة)، الكنغر، شجرة البلوط، الصيف، الشمس، الخريف (جنس المؤنث) الريح (جنس المذكر).

إنّنا إذن قبالة نظام أكثر تعقيدًا وامتدادًا من السابق. فلا يتعلق الأمر بتصنيف قائم على نوعين أساسين (فرعين)، كل منهما يتضمن نوعين (القسمين القرانيين). بدون الشك إنّ عدد الأنواع الأساسية هو هاهنا نفسه، لكن أنواع كل جنس متعددة بشكل أكبر، نظرًا لكون العشائر قابلة لأن تكون كثيرة. ولكن مع ذلك يظل العقل الإنساني على حالته الأولية في الالتباس، على الرغم من اختلاف هذا التنظيم عن سابقه. فإذا كانت المجموعات المتمايزة متعددة، فداخل كل مجموعة أولية يسود التمييز نفسه. حيث إنّ الأشياء المنسوبة إلى فرع تميز بشكل واضح عن تلك التي تنسب إلى فرع آخر؛ كما أنّ الأشياء المنسوبة إلى مختلف عشائر الفرع الواحد ليست أقل تميزًا. لكن كل تلك المنتمية إلى العشيرة نفسه تظل بشكل عام غير متمايزة. إنّها من الطبيعة نفسها، ولا يوجد بينها خط فاصل تمييزي بات مثل ذلك الذي يوجد في التنويعات النهائية لتصنيفاتنا. إنّ جميع أفراد العشيرة، وكائنات النوع الطوطمي، والأنواع المرتبطة بها، ليسوا سوى واجهات مختلفة للواقع نفسه. فالتقسيمات الاجتماعية المطبقة على كتلة التمثلات البدائية استطاعت فعلاً أن ترسم بعض أطر محددة، لكن ما يوجد داخل هذه الأطر بقي في حالة عماء إلى حد ما، وهو ما يشهد على البطء والصعوبة اللذين ميزا تأسيس وظيفة التصنيف.

ولا يصعب في حالات معينة أن نتبين بعض المبادئ التي على أساسها تشكل هذا التجميع. مثلاً في قبيلة جبل غامبيا، تسند إلى صاري المقدمة الأبيض، الشمس، والريح؛ وإلى صاري المقدمة الأسود، القمر، والنجوم، وكواكب الليل. فيبدو أنّ اللون وفر الخط الذي على أساسه تم عرض مختلف التمثلات على شاكلة طِباقية. ومن ثمة إنّ الغراب يحتوي بشكل طبيعي، وذلك بفضل لونه، المطر، وتبعًا لذلك فصل الشتاء، والسحب، ... إلخ، وبفعل هذين البرق والرعد. سأل يومًا السيد ستيوارت أحد السكان الأصليين عن القسم الذي ينتمي إليه الثور، فتلقى بعد لحظة من التفكير الرد التالي "إنّه يأكل العشب، إذن فهو بورتفيريو

15 حسب كورر يتعلق الأمر بطوطم طائر الحبش laa ويتضمن أشياء ترتبط ببعض الجذور القابلة للاستهلاك. وهذه التنويعات ليست غريبة. بل إنّها تشهد فقط على صعوبة التحديد الدقيق للأشياء المصنفة تحت العشيرة، والتي تمثل طوطيما لكل مجموعة.

boortwerio أي أنّه من عشيرة شجر الشاي، الذي يضم على وجه الاحتمال كل الكلإ وآكلات الكلأ". لكن هذه ربما تفسيرات لاحقة يلجأ إليها الزنجي لكي يبرر لنفسه تصنيفه الخاص ويرجعه إلى قواعد عامة يهتدي على ضوئها. وفي غالب الأحيان تباغته أسئلة من هذا القبيل فيكتفي برد يستحضر التقاليد "فالأسباب الكامنة وراء إنشاء الإطار تم نسيانها، لكن الإطار نفسه ظل صامدًا، ويتم تطبيقه بطريقة أو بأخرى على التصورات الجديدة مثل تصور العجل الذي أدخل حديثًا على هذه القبائل" أليس من باب أولى علينا ألا نعجب كثيرًا من كون هذه الترابطات تجعلنا في حيرة، نظرًا لأنّها ليست وليدة منطق شبيه بمنطقنا. إنّها موجهة بقوانين لا ننتبه لوجودها.

حالة شبيهة تردنا من قبيلة فوتجوبلوك wotjoballuk، وهي إحدى قبائل غال الجديدة بالجنوب، وهي من أكثر القبائل الأسترالية تطورًا. ونحن مدينون بهذه الأخبار إلى هوبيث الذي نعرف كفاءته. تنقسم القبيلة إلى فرعين كروكيتش krokitch وغاموتش[16] Gamutch، اللذين يبدوان بأنّهما يقتسمان حسب هوبيث، كل الأشياء الطبيعية. وحسب عبارة السكان الأصلين "تنتمي الأشياء إلى الفروع". زيادة على هذا كل فرع يضم مجموعة معينة من العشائر. وعلى سبيل المثال يشير هوبيث إلى أنّ فرع الكوكيتش يضم عشيرة الريح الساخن، ومقدمة الصاري الأبيض بدون ذروة، وأشياء الشمس، وفي فرع غاموتش، توجد عشائر الصِّل الأصم، ومقدمة الصاري الأسود، وطائر البجع. لكن كل هذه لا تعدو أن تكون أمثلةً: "لقد أوردت - يقول هوبيث - ثلاثة طوطيمات لدى كل فرع كمجرد أمثلة، لكن هناك المزيد منها؛ ثمانية بالنسبة إلى الكركيتش، وعلى الأقل أربعة ارتباطًا بالغاموتش" إنّ الأشياء المصنفة داخل كل فرع هي موزعة بين مختلف العشائر المشكلة له. وعلى المنوال نفسه يُوزع الانقسام الأولي "الفرعي" إلى أقسام طوطمية، حيث إنّ الأشياء المنسوبة إلى الفروع تقسم بين الطوطيمات. وهكذا كل طوطم يتوفر على عدد من الموضوعات الطبيعية التي ليست كلها حيوانات، فبينها توجد النجمة، والنار، والريح..ألخ. ويدعو هويث الأشياء المصنفة هكذا تحت كل طوطم، طوطيمات ثانوية أو أشباه طوطيمات. تشتمل مقدمة الصاري الأبيض على سبيل المثال، خمسة عشر، والريح خمسة. وأخيرًا يدفع بالتصنيف إلى درجة من التعقيد، بحيث تضاف إلى هذه الطوطيمات الثانوية نفسها طوطيمات ثالثية tertiares متعلقة بالسابقة. مثلاً قسم الكروكيتش (فرع)، يضم قسمة البجع (طوطم): هذا الأخير يضم مجموعات تحتية (طوطيمات تحتية، أنواع من الأشياء المصنفة تحت الطوطم) بينها توجد النار، التي هي نفسها تضم باعتبارها قسمة فرعية درجة ثالثة، العلامات التي تقام باعتماد النار[17]

16 ونرى القرابة بين هذه الأسماء وكروكي والكوميت التي استعملت من طرف قبيلة جبل غامبيي، ما يثبت صحة هذا النظام من التصنيف الذي يتطابق حول نقاط متباعدة

17 المفردة التي يستعملها الأفراد الذين يشكلون هذه القسمة الفرعية للعشيرة الفرعية لكي يشيروا إلى أنفسهم تعني بالضبط: إننا ننبه بعضنا بعضًا (further notes", J.A.I P. 61) وإذا ما أردنا فكرة دقيقة عن مدى تعقد هذا التصنيف، ينبغي إضافة إلى هذا استحضار عنصر آخر، وهو أنّ الأشياء لا تتوزع بين العشائر الحية، وإنّما الميتة أيضًا، الذين يشكلون أيضًا عشائر لها طوطماتها الخاصة، وبالتالي أشياؤها المسندة إليها. وهي ما ندعوه الطوطم الجنائزي. مثلاً حين يموت أحد الكركتيش التابع لطوطم نغوي Ngaui (الشمس) فهو يفقد اسمه، ويتوقف على أن يكون نغوي لكي يتحول إلى mitbagrargr، وهو لحاء شجرة المالليmalle. من جهة أخرى هناك بين الطوطيمات الحية وتلك الميتة نوع من الترابط، فهي جميعها تدخل في نظام التصنيف نفسه

إنّ هذا التنظيم الغريب للأفكار، الذي يوازي تنظيم المجتمع، وعلى وجه التقريب تعقده، يناظر بشكل كامل ما وجدناه لدى قبائل جبل الغامبي؛ وكذلك التصنيف حسب الأقسام القرانية التي لاحظناها لدى قبائل الكوبينلان، ويناظر القسمة الثنائية تبعًا للفروع التي نصادفها في كل الأنحاء تقريبًا[18]الآن وبعد أن وصفنا مختلف تنويعات هذا النظام بكيفية موضوعية، وحسب اشتغاله من داخل المجتمعات، سيكون من المهم أن نعرف المنحى الذي من خلاله يتمثل الأسترالي ذلك، والتصور الذي يُكونه حول هذه العلاقات التي تقيمها فيما بينها، وكذلك مجموعات الأشياء المصنفة على هذا النحو. فذلك سيجعلنا أكثر قدرة على تبين ما هي التصورات المنطقية لدى البدائي والكيفية التي تتشكل عبرها. وإنّ لدينا حاليًا، حول الفوتجبالوك، وثائق تسمح لنا أن ندقق بعض نقط في هذه المسألة.

وكما يمكن أن نترقب ذلك، يتبدى هذا التمثل حسب واجهات مختلفة.

ينظر ابتداءً إلى هذه العلاقات المنطقية على شاكلة علاقات قرابة لصيقة إلى حد ما مع الفرد. فحينما يتم التقسيم فقط من خلال الفروع، دون اللجوء إلى تقسيمات ثانوية أخرى، يشعر الجميع بأنّهم أقارب بعضهم لبعض، وكذلك مع الكائنات المنسوبة إلى الفرع الذي يعتبر هذا الفرد عضوًا فيه؛ إنّهم جميعًا، على قدم المساواة، لحمة، وأصدقاء، بينما يحملون مشاعر مغايرة تجاه كائنات الفروع الأخرى. لكن حين ينضاف ويتراكب مع هذا التقسيم الأساسي التصنيف إلى أقسام أو عشائر طوطمية، فإنّ علاقات القرابة تصبح مختلفة. وهكذا فإنّ الفرد الكوميتي Kumite بجبل الغابون يستشعر كل الأشياء الكوميتية قريبة له؛ ولكن تلك المنسوبة إلى طوطيمه الخاص تبدو الأقرب إليه. إنّ علاقة القرابة في الحالة الأخيرة تبدو الأمتن. "إنّ اسم الفرد يتصف بالعمومية" يقول هوييت متحدثًا عن الفوتجوبالوك Wotjoballuk؛ "بينما وحسب دلالة معينة، إنّ الاسم الطوطيمي فردي، لكونه بالتأكيد الأقرب إلى الفرد من اسم نصف المجتمع (يقصد الفرع) الذي ينتمي إليه". إنّ الأشياء تبدو منتظمة داخل سلسلة من الدوائر المتركزة حول الفرد؛ الأكثر بعدًا عنها، المتعلقة بالأنواع الأكثر عمومية، وهي تلك التي تضم الأشياء الأقل اتصالاً به؛ لكنها تفقد هذا الطابع المحايد بقدر ما تقترب منه. لذلك حينما يتعلق الأمر بالأشياء القابلة للأكل، فإنّ تلك الأكثر قربًا منه هي ما يحظر عليه أكلها.

في حالات أخرى، يتم التفكير في هذه العلاقات في صورة علاقة ما بين المُلاّك والمتملكين، حيث إنّ الاختلاف بين الطوطيمات الرئيسة وبين الثانوية، حسب هويث، يتمثل في التالي: "سواء الأولى أو الثانية تدعى miru (صيغة الجمع ل مير mir والتي تعني الطوطم). لكن بينما أحد المرشدين التابعين لي، أحد الكروكتيش Kroktich يأخذ اسمه من نغوي nguai الشمس (وهو طوطم بالمعنى الكامل للكلمة)، فهو

18 سنترك جانبًا التأثير الذي يمكن أن يحدثه تقسيم الأفراد على شكل مجموعات جنسية واضحة التمايز، على تقسيم الأشياء إلى أجناس. مع ذلك من الصعب هنا حين يكون لكل جنس sexe طوطمه الخاص، ألا يكون التأثير هائلاً. نكتفي بالإشارة إلى السؤال جريًا على ما قدمه فريزر (voir annee socilogique, 4, p.364)

يتملك بونجيل bungil إحدى الكواكب الثابتة (وهي طوطم ثانوي).. فهو مملوك للطوطم الفعلي، لكنه هو نفسه مالك للطوطم الثانوي" على النحو نفسه يدعي أحد أعضاء عشيرة وارتوت wartwut (الريح الساخن) "امتلاكًا خاصًا" لأحد الطوطيمات الثانوية الخمسة، موافوك moiwuk (ثعبان التابيس). لكن إذا ما أردنا تدقيقًا أفضل للكلام، فليس الفرد شخصيًا هو من يملك الطوطم الثانوي: بل إنّ كل تلك الطوطيمات الثانوية المتعلقة به كفرد، تعود ملكيتها إلى الطوطم الرئيسي، بينما الفرد لا يأخذ هنا سوى دور الوسيط. إذ نظرًا لحضور هذا الطوطم في دواخل هذا الفرد (وهو حضور متحقق في جميع أعضاء العشيرة) يتوفر هذا الفرد على نوع من حق الملكية إزاء الأشياء المنسوبة إلى الطوطم الرئيس. وإنّنا لنستشعر بالمناسبة، من خلال هذه العبارات التي أوردناها، شيئًا من التصور الذي نسعى إلى تحليله بشكل أساسي. ذلك لأنّ شيئًا "ينتمي على وجه التحديد لفرد ما" هو أيضًا مجاور له ومتصل به على نحو خاص ومميز[19] ويصح أيضًا في حالات أخرى، أن يظهر الأسترالي وهو يتمثل تراتبية الأشياء حسب نظام معكوس تمامًا. حيث إنّ الأشياء البعيدة هي ما تعتبر بالنسبة إليه الأكثر أهمية. فأحد السكان الأصليين الذي سبق وأن تحدثنا عنه، والذي يتخذ من الشمس طوطمًا رئيسًا (ngaui)، ومن نجمة بونجيل (bungil) طوطيما ثانويًا يقدم نفسه باعتباره "نغوي وليس بونجيل". وآخر أشرنا إليه أيضًا، يتخذ الريح الساخن wartwut طوطمًا رئيسًا وثعبان التابيس (moiwuk) طوطمًا ثانويًا، هو أيضًا كما أورد أحد رفاقه ريح ساخن wartwut "لكنه جزئيًا ثعبان تابيس moiwuk" إنّه ثعبان فقط في جانب محدود منه. وهو ما يفيد صيغة أخرى يوردها هونييت. للفوتجوبالوك في الغالب اسمان، أحدهما يمثل طوطمه الرئيس، والآخر طوطمه الثانوي. الأول هو على وجه التحقيق اسمه الفعلي، بينما "يأتي الاسم الآخر مجرد لاحق" ومن درجة ثانية. وذلك لأنّ الأشياء الأساسية بالنسبة إلى الفرد ليست تلك المجاورة له، واللصيقة بشخصيته الفردية. إنّ ماهية الإنسان هي الإنسانية. وماهية الأسترالي تكمن في طوطمه الرئيس وليس في طوطمه الثانوي، أو لنقل، في مجموع الأشياء المميزة لفرعه. فليس هناك أي شيء في هذه النصوص يناقض ما سبق. ذلك لأنّ التقسيم يدرك دائمًا على النحو نفسه، فقط العلاقات المشكلة له ينظر إليها من زاوية مختلفة.

II

ينبغي علينا بعد أن أقمنا هذا النوع من التصنيف، أن نسعى قدر المستطاع إلى تحديد بُعده العام.

لا تسمح لنا الوقائع بالقول إنّه تصنيف منتشر في كل أستراليا، ولا أنّه يتوفر على امتداد الانتظام القبائلي نفسه المتمثل في الفروع، والأقسام القرانية والعشائر الطوطمية. ومن المؤكد أنّنا على قناعة تامة بقدرتنا إذا ما بحثنا جيدًا، على أن نجد هذا التصنيف كاملاً أو ناقصًا، داخل مجتمعات أسترالية حيث يظل هذا التصنيف

19 لا تتعلق النصوص السابقة إلا بالعلاقة بين الطوطم الثانوي وبين الطوطم الرئيس، وليس بين هذا الأخير والفرع. لكن من المؤكد أنّ هذه العلاقة ستدرك على النحو نفسه. ويعود سبب افتقادنا لنصوص متعلقة خصوصًا بهذه النقطة، لأنّ الفرع لا يلعب إلا دورًا باهتًا داخل القبائل، ولذلك يأخذ حيزًا صغيرًا من الاهتمام.

لحدود الساعة غير بيّن؛ ولكن ليس في مقدورنا أن نصدر أحكامًا مسبقة على نتائج ملاحظات لم تنجز بعد. ومع ذلك، إنّ الوثائق التي بحوزتنا منذ الآن تسمح لنا بالتأكيد يقينًا أنّه تصنيف منتشر في هذه الأوساط، أو أنّه كان كذلك في الماضي.

بداية وقبل كل شيء، في حالات كثيرة حيث لم نلاحظ مباشرة هذا الشكل من التصنيف، فإنّنا مع ذلك وجدنا وخبرنا عن وجود طوطيمات ثانوية، وهي التي كما رأينا تفترض تصنيفًا على هذه الشاكلة. وهو ما يصح على وجه الخصوص في جزر مضيق طوريس المجاورة لغينيا الجديدة البريطانية. ففي كيوي Kiwai كل العشائر تتخذ ميرامارا (mirimara) طوطمًا لها، وهي أنواع نباتية؛ إحدى هذه العشائر ذات شجرة نخيل (nipa) كطوطم، تتخذ من السلطعون، الذي يسكن في الشجرة الحاملة للاسم نفسه طوطمًا ثانويًا. كما نجد في موبياغ Maubiag (جزيرة في غرب مضيق طوريس) انتظام العشائر حسب فرعين: فرع الطوطم الصغير Augud وفرع الطوطم الكبير، أولهما يتعلق باليابسة والآخر بالماء، أحدهما يقيم ويخيم تحت الريح بينما الآخر نحو الريح، أحدهما يوجد شرقًا والآخر غربًا. الفرع المتعلق بالماء طوطمه الدودونغ وهو حيوان مائي، يدعوه هادون Haddon بعبارة shovel-nose skate؛ أما طوطيمات الفرع الآخر، باستثناء التمساح الذي هو حيوان برمائي، فكلها حيوانات برية: التمساح، الأفعى، الكاسوري casoar. وهاهنا بالتأكيد آثار مهمة للتصنيف. لكن بالإضافة إلى هذا يشير هادون صراحة إلى «طوطيمات ثانوية أو تعويضية بعبارة أصح»: القرش ذو الرأس المطرقة، سمكة القرش، السلحفاة، سمكة الراية ذات الإبرة، تسند بهذه الصفة إلى فرع الماء، الكلب، إلى فرع اليابسة. بالإضافة إلى ذلك ينضاف إلى هذا الأخير طوطيمان ثانويان؛ على شاكلة زينة هلالية من الودع والصدف. ولذلك إذا كنّا نعتقد أنّ الطوطمية في حالة انهيار عام داخل هذه الجزر، فيبدو أنّه من المشروع أيضًا أن نرى في هذه المعطيات بقايا نظام تصنيف أكثر اكتمالاً. ومن المرجح جدًا وجود نظام شبيه يصادف في أماكن أخرى من مضيق طوريس وفي أعماق غينا الجديدة. كما أنّه قد تم الوقوف الصريح داخل سيبي saibai(إحدى جزر المضيق) وداخل دودي daudai، على وجود المبدأ الأساسي للتصنيف القائم على الأجذام والعشائر الثلاثية.

وبمقدورنا أن نجد آثار هذا التصنيف نفسه في جزر موري murray، بحر وير ودوار waier et dauar، ونود أن نلفت الانتباه دون الدخول في تفاصيل هذا النظام الاجتماعي الذي وصفه لنا السيد هونت، إلى الواقعة التالية المتمثلة، في وجود عدد معين من الطوطيمات، يمنح كل واحد منها للأفراد سلطات متعددة حول أنواع مختلفة من الأشياء. فمثلاً الأشخاص الذين يتخذون الطبل طوطمًا لهم يتوفرون على القدرات التالية: يعود إليهم الحق في إقامة الطقس الذي يقلدون خلاله الكلاب ويعزفون على الطبول؛ كما أنّهم هم من يوفرون السحرة المكلفين بجعل السلاحف تتوالد، وتأمين محصول الموز، وتخمين القتلة من خلال حركة السحلية؛ وهم أخيرًا من يفرضون طابو الأفعى. ومن هنا يمكن إذن القول أنّه من الراجح جدًا، أنّ عشيرة الطبل يعود إليها، بالإضافة إلى الطبل ذاته، الثعبان، الموز، الكلاب، السلاحف، السحالي. وكل هذه الأشياء،

تبرز، على الأقل جزئيًا، داخل الفئة الاجتماعية نفسها، وبالتالي فإنّ العبارتين هما في العمق مترادفتان، مع الصنف نفسه من الكائنات[20] وتتسم الميثولوجية الفلكية للأستراليين بملامح هذا النظام الذهني نفسها. إنّها في الواقع مصبوبة في قالب التنظيم الطوطمي. فعلى وجه التقريب كل الزنوج يقولون بأنّ نجمًا معينًا هو تشخيص لسلف بعينه[21]. ومن المحتمل جدًا أنّه علينا أن نشير سواء بهذا النجم أو بالفرد الذي يتداخل معه، إلى أي فرع وقسم وعشيرة ينتمي. ومن هنا يصبح مصنفًا داخل مجموعة محددة، فيُمنح قرابة ووضعًا معينًا داخل المجتمع. ومن المؤكد أنّ هذه التصورات الميثلوجية تلاحظ في المجتمعات الأسترالية حيث وجدنا مع كل الملامح المميزة لتصنيف الأشياء إلى فروع وعشائر، وذلك في قبائل جبل غامبيا، وعند الفوتجوبالوك wotjoballuk، وفي قبائل شمال فكتوريا. "الشمس، يقول هويت، امرأة كروكتيشية من عشيرة الشمس، تذهب كل يوم للبحث عن ولدها الصغير الذي فقدته" بونجيل (نجمة فوملهوت fomlhaut) كانت قبل صعودها للسماء صاري مقدمة متين وأبيض، من الفرع كروكتيش. وكان له امرأتان، ينتميان طبعًا وحسب قاعدة الزواج المختلط إلى الفرع المقابل، غاموتش gamutch، وقد كانتا بجعتين (احتمالاً طوطم ثانوي للبيلكان). وهما أيضًا نجمتان. ويعتقد فوافنونغ woivonung وهم مجاورون للفوتجوبولك wotjoballuk بأنّ البونجيل (اسم فرع) صعد إلى السماء من خلال زوبعة، هو وأبناؤه الذين كانوا جميعًا كائنات طوطمية (بشرية وحيوانية في الوقت نفسه)؛ إنّه كما هو الأمر عند فوتجوبالوك، فوملهوت، وكل من أبنائه نجوم، إثنان منهم هما النجمة ألفا والنجمة بيتا من برج صليب الجنوب. وبعيدًا عن هاتين القبيلتين، يصنف الميكولون Mycooloon جنوب كوينلاند، سحب برج صليب الجنوب تحت طوطم حيوان الإيمو؛ حزام الأوريون في اعتقادهم من عشيرة ماربرينغال mrbaringal وكل الشهب من عشيرة جينبابورا jinbabora. وحينما يسقط أحد هذه الشهب، فهو يرتطم مع شجرة جيديا ليصبح بدوره شجرة من النوع نفسه. وهو ما يفيد أنّ هذه الشجرة نفسها ذات علاقة بالعشيرة ذاتها. أما القمر فهو محارب قديم لا تخبرنا هذه الميثولوجية باسمه ولا طبقته. وهكذا إنّ السماء مسكونة بأسلاف من الأزمنة المتخيلة.

وهي نفسها أشكال التصنيف الفلكية المستعملة من طرف أرانتاس Aruntas، والذين علينا تناولهم اللحظة، ومن وجهة نظر مختلفة. فبالنسبة إليهم الشمس هي امرأة من القسم القراني بانونغا panunga ولذلك فإنّ فرع بانونغا-بولتارا panunga-bulthara هو ما يتكفل بالطقس الديني الخاص بها[22]. ولقد تركت على الأرض نسلاً يستمر في التناسخ والتولد بحيث يشكل عشيرة خاصة. لكن من الظاهر أنّ هذا التفصيل الأخير في التراث الأسطوري جاء متأخرًا. لأنّه إن كانت الشمس سابقًا تنتمي للبانونغا، من عشيرة

20 نصر على لفت الانتباه لهذا المعطى، لأنّه يمنحنا الفرصة لملاحظة عامة. فحيث نرى عشيرة أو نحلة دينية تمارس سلطًا دينية سحرية على أنواع مختلفة من الأشياء، يكون من المشروع التساؤل حول ما إذا كان ذلك مؤشرًا على تصنيف قديم يسند إلى هذه الفئات الاجتماعية هذه الأنواع المختلفة من الكائنات.

21 الوثائق حول هذا الموضوع كثيرة جدًا بحيث لن نشير إليها كلها. وهي ميثلوجية تطورت إلى درجة جعلت الأروبيين في الغالب يعتقدون أنّ الأفلاك هي أرواح الموتى.

22 ينبغي أن تكون غالبية الأفراد الذين يقومون بهذه المهمة من هذا الفرع.

باندیکوت، الذین یسکنون أراضي السحلیة الکبیرة، فإنّنا نعرف علاوة على ذلك أنّ الأمر یصح أیضًا بالنسبة إلى أخواتها. وکثیرًا ما یخلطون بها، إنّها بنیتهم الصغیرة "شمسهم"؛ وإجمالاً فهم لیسوا سوى تضعیف لها dédoublement- أما القمر فهو وفي أسطورتین مختلفتین، ینسب إلى عشیرة الأبوسوم opossum. في أحدها هو رجل من هذه القبیلة؛ وفي الأخرى هو امرأة سرقت من أحد رجال القبیلة، وهذا الأخیر هو من حدد طریقها، صحیح لا أحد یخبرنا بفرعها الأصلي، لکن العشیرة تتضمن ذلك، أو على الأقل تُضمنه مبدئیًا في أرونتاس الذین نعرف أنّهم من قسم الکومارا، کنجم الصباح؛ الذي یلجأ کل مساء إلى حجر یوجد في أراضي "السحلیات الکبرى" والذي یبدو بأنّ له قرابة کبرى بهم. وکذلك النار التي تنسب بشکل لصیق وحمیم إلى طوطم الأورو euro، وهو رجل من القبیلة نفسها اکتشف النار داخل حیوان یحمل الاسم نفسه.

یمکن القول إنّنا لا نعدم قدرة على التعرف على أشکال التصنیف هذه، حتى في الحالات التي لا تبدو فیها صریحة، وذلك على شاکلة ومنحى مباین على ما سبق وأن وصفناه. فقد حدثت تغیرات اجتماعیة في البنیة الاجتماعیة، أثرت في اقتصاد هذه الأنظمة، لکن لیس إلى الحد الذي یطمس ملامحها بشکل نهائي. بالإضافة إلى هذا، إنّ هذه التغیرات هي في جانب منها حدثت بسبب هذه التصنیفات نفسها، وبالتالي فهي کافیة لاستخلاصها والکشف عنها.

وما یمیز هذه التغیرات، هو کون أفکارها منتظمة حسب نموذج یجد أصله في المجتمع. لکن ما أن یوجد هذا النظام الذهني الجماعي، حتى یکون قادرًا على أن یؤثر في علته ویساهم في تغییرها.

لقد سبق وأن رأینا کیف أنّ أنواع الأشیاء، المصنفة داخل عشیرة معینة، تلعب دور طوطیمات ثانویة، أو طویطیمات فرعیة؛ بحیث أنّ مجموعة أو أخرى داخل العشیرة نفسها، تصبح بفعل أسباب لا نعرفها، تشعر بأنّها على علاقة خاصة بهذا الشيء أو ذاك الذي ینسب بشکل عام إلى العشیرة کلها. وما تکاد هذه الأخیرة تصبح ذات حجم أکبر، حتى تمیل إلى أن تنحل وتتفکك، وذلك حسب خطوط ممیزة، وینبغي أن نحذر الاعتقاد أنّ هذه الانقسامات هي بالضرورة نتیجة حرکات ثوریة وصاخبة. ففي أغلب الأحیان یبدو أنّها حدثت بسبب سیرورة منطقیة خالصة. بل یمکن القول إنّ الفروع تشکلت والعشائر تشعبت في حالات کثیرة، على هذا المنوال. ففي مجتمعات أسترالیة متعددة، یتقابل بعضها مع بعض کما لو أنّ الأمر یتعلق بحدي تناقض جدلي، مثل الأبیض والأسود، وفي مضیق طوریس تتقابل تقابل الیابسة والماء، وکما تقیم العشائر التي تتشکل داخل هذه المجتمعات ـ بینها بالإضافة إلى هذا، علاقات قرابة منطقیة. وهکذا من النادر في أستراالیا أن تکون عشیرة الغراب من فرع آخر، غیر ذلك المتعلق بالسیل أو السحب أو الماء. وکذلك الحال حینما یصبح التفرع والتفکك ضروریًا بالنسبة إلى العشیرة، فإنّ الأفراد المنتظمین حول أشیاء مصنفة بعینها داخل العشیرة، هم من ینفصلون عن الباقي لکي یشکلوا عشیرة مستقلة، وحینها یتحول الطوطم الفرعي إلى طوطم رئیس. وحینما تبتدئ هذه الحرکة یمکنها أن تستمر، ودائمًا حسب الإجراء نفسه. العشیرة الفرعیة التي تحررت تأخذ معها بالإضافة إلى مجالها المثالي، زیادة على الشيء الذي یمثل طوطمها، أشیاء أخرى

ينظر إليها على أنّها لصيقة به. وهذه الأخيرة تلعب في العشيرة الجديدة وظيفة طوطيمات فرعية، ويمكنها بدورها أن تصبح مراكز تتشكل حولها فيما بعد تفرعات جديدة.

ويسمح الفوتجوبالوك wotjoballuk على الخصوص بضبط هذه الظاهرة حية أثناء اشتغالها في علاقة مع علاقات عمليات التصنيف[23]. فحسب هويت إنّ مجموعة معينة من الطوطيمات الفرعية، هي طوطيمات رئيسية في طور التشكل "إنّها تحاول السطو على نوع من الاستقلالية"، وهكذا فبالنسبة إلى بعض الأفراد، إنّ طائر البجع الأبيض هو طوطم، بينما الشمس هي طوطم فرعي، فيما هناك من يضعهما في تصنيف معكوس. وذلك احتمالاً بسبب أنّ هاتين التسميتين كانتا تستعملان سابقًا كطوطيمات فرعية بالنسبة إلى قسمين من عشيرة قديمة أُسقط طوطيمها الرئيس، الذي كان يضم من ضمن الأشياء المسنودة إليه، البجع والشمس. ومع مرور الوقت، انفصل الطرفان من أصلهما المشترك: أحدهما اتخذ البجع طوطمًا رئيسًا، تاركًا الشمس للدرجة الثانية، بينما الطرف الآخر عكس الأمر. في حالات أخرى حيث لا يمكن أن نلاحظ بشكل مباشر هذا التفريع، يصبح حينئذ قابلاً للإدراك من خلال العلاقات المنطقية التي توحد فيما بينها الأقسام الفرعية المتولدة عن العشيرة نفسها. فنحن نرى بوضوح بأنّ الأمر يتعلق بأنواع من الجنس نفسه. وهذا ما سنظهره فيما بعد، من خلال بعض المجتمعات الأمريكية.[24]

وهكذا إنّه لمن السهل أن نطالَع بالتحولات التي تجريها هذه التفرعات على عملية التصنيف. بقدر ما تحافظ العشائر الفرعية على ذكرى الأصل المشترك، بحيث يستشعرون أنّهم أقارب وشركاء، فهم ليسوا سوى أجزاء الكل نفسه؛ وبالتالي فإنّ الطوطيمات خاصتهم، والأشياء المصنفة تحتها تظل متعلقة في حدود معينة بالطوطم الكلي للعشيرة الكبرى. لكن سرعان ما ينمحي هذا الإحساس مع مرور الزمن. فيتضخم تحرر كل طرف إلى أن يتحول إلى استقلالية كاملة. فترتخي بيسر واضطراد، الوشائج الموحدة بين كل العشائر الرئيسة والفرعية داخل الفرع نفسه، إلى أن تنحل في المنتهى إلى هباء من المجموعات الصغيرة المستقلة، والمتكافئة بعضها مع بعض، مفتقدة كل تعالق وارتباط. ومن الطبيعي أنّ التصنيف يتغير نتيجة لذلك. حيث أنّ أنواع الأشياء المنسوبة إلى كل هذه الأقسام الفرعية تشكل بقدْرها أجناسًا متمايزة، ومتموضعة على المستوى نفسه. لقد اندثرت كل تراتبية. لكن يمكن أن نستشف بقاء بعض آثارها داخل كل عشيرة صغيرة. لأنّ الكائنات المرتبطة بالطوطم الفرعي والتي أصبحت الآن طوطمًا رئيسيًا، تستمر في الاندراج تحت هذا الأخير. غير أنّها تقل مع الوقت، أولاً للطبيعة المتشرذمة لهذه الجماعات الصغرى. ثم لأنّه طالما استمرت هذه الحركة كل طوطم فرعي يعلو درجة وقدرًا، وبالتالي كل نوع، وكل تشكيلة مرتبطة به تصبح جنسًا

23 لقد درس هويت الفوتجوبالوك من وجهة النظر هذه بالضبط، ولقد كان هذا التفريع، الذي يجعل من النوع نفسه من الأشياء مرة بصفة طوطيم، ومرة بصفة طوطم ثانوي، هو ما جعل إقامة جدول كامل للعشائر والطوطيمات مهمة صعبة.

24 وقد يسمح هذا التفريع وكذلك التغيرات التي تنتج عنه في تراتبية الطوطيمات الرئيسية والثانوية، بتفسير خصوصية مهمة داخل هذه الأنساق الاجتماعية. فنحن نعرف الطوطيمات في أستراليا على الخصوص هي في الغالب حيوانات، ونادرًا ما تكون جمادات. ولذلك يمكن أن نذهب إلى أنّ كل الطوطيمات كانت من أصل حيواني في بادئ الأمر. لكن تحت هذه الطويطيمات البدئية صنفت أشياء جامدة، وانتهت بعد ذلك ومن خلال التفريع، إلى الارتقاء نحو درجة الطويطمات الرئيسة.

أساسيًا. وهكذا يفسح التصنيف القديم المكان لقسمة بسيطة دون نظام داخلي، وإلى تكرار الأشياء مفردة لا من حيث طبقتها. ولكن على الرغم ذلك لأنّ هذه القسمة تتم بين مجموعة هائلة من الجماعات فإنّها تصبح لامّة على وجه التقريب للكون بأكمله.

ويوجد مجتمع الأرونتاس في هذه الوضعية بالذات. إذ لا توجد لديه تصنيفات مكتملة، حسب نظام مؤسس. وإنّما وحسب عبارة سبنسر وجيلن Spencer et Gillen "لا يوجد لدى السكان الأصليين، في البلدان المحتلة، أي شيء جامد أو حي إلا ويمنح اسمه إلى مجموعة طوطمية من الأفراد"[25] وقد أشارا في كتابهما إلى أربع وأربعين نوعًا من الأشياء تعتمد طوطمًا للقدر نفسه من الجماعات الطوطمية؛ ومع ذلك، ولأنّ هذين الملاحظيْن لم يأبها كثيرًا بأن يضعا بنفسهما لائحة كاملة لهذه الطوطيمات، فإنّ تلك التي استطعنا إقامتها، من خلال تجميع الإشارات المنتشرة في الكتاب ليست بالضرورة قائمة شاملة[26]. الحال أنّ قبيلة الأرونطاس هي من القبائل التي استمرت بها سيرورة التفريع إلى أقصى حد؛ وذلك لأنّ كل التحولات التي حدثت في بنية هذا المجتمع، وكل الحواجز، التي من الممكن أن تضمه وتسيجه، اختفت بفعل أسباب تم عرضها في الكتاب نفسه[27]، الأمر الذي جعل الجماعات الطوطمية مضطرة للخروج من الإطار الطبيعي الذي يجعلها بدائيًا ملمومة بعضها على بعض، كما لو أنّه هيكل جسمها العام المتمثل في فرعها الأول. فعوض أن تظلّ متموضعة بشكل صارم داخل الصنف المحدد للقبيلة، انتشر كل منها بشكل حر داخل امتداد المجتمع. ولذلك وبعد أن أصبحت غريبة على التنظيم الاجتماعي المقنن، فقد سقطت تقريبًا في نوع من الجمعيات الخاصة، فأصبح بمقدورها التكاثر والتفتت إلى ما لانهاية تقريبًا.

وهذا التفتت ما يزال مستمرًا. إذ توجد في الواقع أنواع من الأشياء ما يزال موقعها من التراتبية الطوطمية غير واضح، وذلك باعتراف سبنسر وجيلسن نفسيهما: فنحن لا نعرف إن كانت طوطيمات

Native Tribes of Central Australia, Londres, 1898, p. 112. 25

26 ونعتقد أنّنا سنقدم خدمة جيدة من خلال نقل هذه القائمة مثلما وضعناها. وطبعًا إنّنا لا نتبع أي خطة في عملية التعداد هذه: الريح، الشمس، الماء أو السحاب (p. 112) الفأر، الدودة *witchetty*. الكنغر السحلية. حيوان الإيمو. وردة الهاكي *(p.116)*. النسر العقاب. الإيلونكا *(وهي نوع من الفاكهة)*. النرجين. القط البري. إيرياكورا irriakura (ورد من فصيلة البصليات)، سرفة فراشة لونجيكوم longicome، الباندیکوت، نرنجين إلبيرلا، نملة العسل، الضفدع، العوزة أو عنبة الشانكونا chankuna، شجرة البرقوق، سمكة إيربونغا irpunga، الأبسوم، الكلب البري، الأورو (p.117 وما يليه)، الباز الصغير (p.232) ثعبان التابيس، السرفة أو الدودة الصغيرة، الوطواط الأبيض الكبير(300، 301) بذور العشب (311) سمكة أتيربينتا (316) ثعبان كوما (317) طائر الحجل المحلي، نوع آخر من فاكهة ماندينيا (320) فأر الجيربوا (329) نجم المساء(360)، السحلية الكبيرة والصغيرة (389) الفأر الصغير (395-389)، بذور الشانتوا alchantwa (390) نوع آخر من الفأر الصغير(396) الباز الصغير (397) ثعبان أوكرانينا (399) ديك الحبش البري، العقق، الوطواط الأبيض (401.404.406) وهناك عشائر لأنواع خاصة من البذور، وللخنفساء الكبيرة (441)، حمام إنتوريتا (410) وحش الماء (414) الباز (416)، طائر السمان، نمل البولدوغ (417) نوعين من السحليات (439) الوالابي wallaby ذو الذيل الظلفي (441) نوع مختلف من زهرة الهاكيي (444) الذبابة(546)، طائر الجرس (635)

Année sociologique, 5, p. 108, s. 27

أساسية أو فرعية[28] ما يفيد أنّ هذه المجموعات لمّا تزل في حراكها، مثلما هو حال عشائر الفوتجوبالوك wotjoballuck. من جانب آخر هناك بين الطوطيمات المنسوبة إلى عشائر مستقلة، علاقات قديمة تشهد بأنّها كانت تصنف داخل العشيرة نفسها. وهذا ينطبق على زهرة الهاكيا والقط البري. وهكذا إنّ العلامات المنقوشة على دروع رجال عشيرة القط البري لا تمثل سوى أزهار الهاكيا بشكل خاص، ودون غيرها. وحسب الأساطير، وفي أزمنة خرافية، إنّ هذا النوع من الورود هو الذي كان يغذي الهرر البرية. وهذا يعني أنّ هذين الشيئين لم يكونا غريبين بعضهما عن بعض، بل لم يصبحا كذلك إلا بعد أن تفككت عشيرتهما الموحدة. ويبدو أنّ عشيرة برنيي prunier تشتق أيضًا من العشيرة المركبة نفسها: زهرة الهاكيا – الهر البري. أما من جهة طوطم السحلية فقد انتزعت مجموعة من الأنواع الحيوانية وطوطيمات أخرى، على وجه الخصوص الفأر الصغير. لهذا ينبغي أن نكون واثقين من كون التنظيم البدائي خضع إلى عمل واسع من الفصل والتفكيك والتفريع الذي لم ينته بعد.

فإذا لم نجد إذن لدى الأرنوط نسقًا كاملاً للتصنيف، فليس لأنّهم لم يتوفروا عليه أبدًا: بل لأنّه انحل بقدر ما تفرعت العشيرة. فوضعه الراهن لا يعكس سوى حالة التنظيم الطوطمية الحالية للعشيرة. وهذا دليل جديد على العلاقة الوطيدة بين هذين الأمرين. إضافةً إلى أنّ هذا النسق علاوة على ذلك لم يختف دون أن يترك آثارًا على وجوده السابق. ولقد سبق وأن ألمحنا إلى متبقيات لذلك في مثولوجية الأرونتاس. بيد أنّنا نجد شواهد أكبر على ذلك في كيفية توزيع الكائنات بين العشائر. ففي الغالب ترتبط أنواع أخرى من الأشياء بالطوطم، مثلما هو الحال بالنسبة إلى التصنيفات الكاملة التي فحصناها سابقًا. إنّها البقايا الأخيرة لنظام الإبدال. هكذا نجد شجرة الصمغ[29] ترتبط بعشيرة الضفادع؛ كما ترتبط دجاجة الماء بالماء. ولقد سبق ورأينا العلاقة القريبة بين طوطم الماء والنار؛ من جهة أخرى ترتبط بالنار فروع شجرة الأوكالبتوس، والأوراق الحمراء لشجرة الإرموفيليا، صوت النفير، الحرارة والحب. وتربط اللحية بطوطم الفأر جيربوا jerboa، وأمراض العيون بطوطم الذباب. والحالة الغالبة هي حين يكون الكائن المرتبط بهذه الكيفية مع الطوطم طائرًا. ويتعالق نمل العسل مع طائر صغير أسود يدعى الألتريبا alatripa، الذي يجوس مثل ذلك النمل في نفس أدغال مولغا، وأيضا بطائر البيرتاكا alpirtaka[30] الذي يتخذ منهم فريسة كما يرتبط نوع من الطيور اسمه ثيبا ثيبا thippa –thippa مع السحلية[31]. ويلحق بنبتة إرياكورا irriakura الببغاء ذو العنق الأحمر. طوطم الكونغرو يتوفر كملاحق له على نوعين من الطيور وهو نفسه حال الأورو. وهذا ما يفيد أنّ

---

28 وهكذا لا يعرف سبنسر وجيلن إذا ما كان حمام الصخر طوطمًا رئيسًا أو ثانويًا. (cf. *p. 410* et *448*) **كما هو الأمر بالنسبة إلى القيمة الطوطمية لأنواع مختلفة من سحليات محددة: حيث أنّ الكائنات الأسطورية التي خلقت البشر الأوائل الذين اتخذوا السحلية طوطمًا، قد تحولوا إلى نوع آخر من السحليات.** (p. *389*).

29 الشيرونغا هذه الشعارات أو الأعلام الفردية حيث يعتقد أنّ أرواح الأجداد تحل فيها، تحمل لدى عشيرة الضفادع تمثيلات لأشجار الصمغ؛ كما أنّ الطقوس حيث تمثل أساطير العشيرة تضم نماذج لشجرة ذات جذور.

30 يتحدث سبنسر وجيلن عن الطيور. لكن في الواقع هذا الوضع هو أكثر عمومية.

31 ونلاحظ التماثل بين أسمائهم والإيلاتريبا الجد الأكبر لهذا الطوطيم.

هذه الترابطات هي بقايا تصنيف قديم. حيث إنّ الكائنات المرتبطة الآن بأخرى، كانت فيما مضى مرتبطة بالطوطم نفسه. فطيور kartwungawunga، كانت في سالف الأزمنة رجال كونغرو يتغذون على هذا الحيوان. كما إنّ النوعين المرتبطين بطوطم نمل العسل كانا نملاً من هذا القبيل. والأورشيرونكا وهي طيور صغيرة ذات حمرة، كانت تنتمي في القديم إلى عشيرة الأورو. أمّا الأنواع الأربعة من السحالي فترجع إلى زوجين من هذه، وكل زوج هو في الوقت نفسه قرين وتحول للآخر.

وختامًا هناك دليل أخير على أنّنا بصدد شكل متحول لتصنيف قديم لدى الأروناتس، يتمثل بقدرتنا على أن نجد سلسلة الحالات الوسيطة التي يترابط من خلالها هذا التنظيم، بالعينة الكلاسيكية لدى قبيلة جبل غامبيا. وذلك حتى دون وجود متصل واضح. فنحن نجد عند الجيران الشماليين للأرنوتاس، لدى شينغالي chingalee الذين يسكنون شمال المنطقة الأسترالية الجنوبية (خليج كاربونتير carpentire) وذلك كما هو حال الأرونتاس أنفسهم، شتاتًا مفرطًا للأشياء بين العشائر المتعددة، وبالتالي الكثير من التفرعات؛ حيث نستطيع أن نعد داخلها تسعة وخمسين طوطمًا مختلفًا. ومثلما هو الأمر عند الأرنوتاس توقفت المجموعات الطوطمية على أن تصنف حسب الفروع؛ إذ كل منها تسير حسب الفرعين اللذين يتقاسمان القبيلة. لكن عملية الانتشار ليست كاملةً تمامًا. فعوض الانتشار التلقائي المفتقد للقواعد، على امتداد المجتمع، فهذه المجموعات تنتشر حسب مبادئ ثابتة متموضعة داخل مجموعات محددة، على الرغم من اختلافها عن الفرع نفسه. وكل واحد من هذا الأخير يقسم في الواقع إلى ثمانية أقسام قرانية[32]؛ الحال أنّ كل قسم لا يمكنه أن يتزوج إلا من قسم محدد من الفرع الآخر، الذي يضم فعلاً أو احتمالاً الطوطيمات الأولية. وتشتمل هاتان المجموعتان المتقابلتان في كليتهما على أشياء قسم محدد من الطوطيمات والأشياء، التي لا توجد في غيرهما. على سبيل المثال ينتمي الحمام بأنواعه، والنمل، والدبابير والبعوض، وذات المائة رجل، والنحل المحلي، والعشب، والجراد، وأنواع الثعابين إلخ.. إلى القسمين: شونغورا والشابلاي chablaye – chongora، أما إلى مجموعة شغارا- شووارغو chagarra-chooarroo فتعود القواقع، الفأر بليبي، الغراب، الشيهم، الكنغر، إلخ... وهكذا تبقى الأشياء على نحو ما منتظمة داخل أطر محددة، لكن هذه الأخيرة تكون قد أصبحت مصطنعة وأقل متانةً لأنّ كلًا منها يتشكل من جزءين نشآ من فرعين مختلفين.

ولسوف نقوم بخطوة أخرى في طريق التنظيم والتنسيق، وذلك بصحبة قبيلة أخرى، وهي المتمثلة في الماراواريين Moorawaria على ضفاف نهر كولغوا، حيث نذهب بعملية تفتيت العشائر وتفريعها إلى أبعد مما نجد عن الأرونتاس؛ فنحن نجد لديهم مائة وإثنين وخمسين نوعًا من الأشياء تستعمل طوطيمات لمختلف

32 هناك قرابة لافتة بين هذه القبيلة وقبيلة الأرنوتاس، حيث تتفرع الأقسام القرانية إلى ثمانية أيضًا؛ وذلك على الأقل عن أرنوتاس الشمال، وعند الآخرين فإنّ التقسيم الرباعي الأولي نفسه هو في طور التشكل. والعلة في هذا التفريع هي نفسها عند الشعبين إنّها القرابة من خلال الرحم والقرابة من خلال الأب. وهنا يظهر بجلاء كيف أنّ هذا التغير يجعل كل الزيجات ممتنعة؛ بدون اللجوء إلى تفريع الأقسام الأربعة الأولى.(voir Année sociologique, 5, p. 106, n° 1) وقد حدث هذا التغير عند الشينغال بكيفية خاصة جدًا، حيث استمر الفرع ومن بعده القسم القراني في التغير نحو السلالة الأمومية؛ حيث أنّ الطوطيم فقط هو ما يورث من الأب. وهكذا نفهم كيف أنّ لكل فرع قسمًا يقابله في الفرع الآخر الذي يضم الطوطيمات نفسها. لأنّ الطفل ينتمي إلى قسم من الفرع الأميسي، لكنه يحافظ على طوطيمات أبيه؛ الذي ينتمي إلى الفرع الآخر.

العشائر. لكن هذا التعدد الكبير للأشياء يؤطر بانتظام داخل فرعين: إبي-كومبو ippai-kumbo وكوبي-موري kubi-muri[33]. ونصبح هنا قريبين جدًا من الشكل الكلاسيكي، غير أنّ هناك وجودًا لتفتت العشائر. فالمجتمع عوض أن يتشتت إلى هذه الدرجة، يتكثف بحيث إنّ العشائر المتفرقة إلى هذا الحد، تعود للاتصال فيما بينها حسب انتماءاتها الطبيعية بحيث تشكل تجمعات كبرى، مما ينجم عنه تناقص عدد الطوطيمات الرئيسة (الأشياء الأخرى التي كانت فيما سبق طوطيمات تأخذ مكاناً ثانويًا) وهذا ما يجعلنا نعود مرة أخرى، وعلى وجه الدقة إلى أنساق جبل غامبيي نفسها.

على الإجمال، إذا لم يكن لنا أن نقول إنّ هذا النحو من تصنيف الأشياء متضمن بالضرورة في النزعة الطوطمية، فهو على كل حال يصادف مرارًا في المجتمعات المنتظمة حسب أسس طوطمية. وبالتالي هناك رابط وطيد وليس مجرد علاقة عارضة، بين النظام الاجتماعي وبين النظام المنطقي. وسوف نرى الآن كيف يمكن أن تتعلق بهذا الشكل البدائي أشكال أخرى تمثل درجة أعلى في التعقد.

III

ويطالعنا شعب الزونيس ZUNIS[34] بأهم الشواهد على ذلك.

إنّ هؤلاء يقول السيد بويل Powell "يمثلون تطورًا غير مألوف للتصورات البدائية المرتبطة بالعلاقة بين الأشياء" حيث إنّ مفهوم المجتمع نفسه يتداخل لديهم مع تمثلهم للعالم، وذلك إلى درجة يمكن الحديث معها عن تنظيم "ميثيو-سوسيلوجي". ولذلك لا يمكن الحديث عن مبالغة، حينما يشير كوشين cushing في دراساته حول هذا الشعب قائلاً: "إنّني واثق بأنّه شعب يملك قيمة للإنسانية جمعاء...لأنّ الزونيس بعاداتهم ومؤسساتهم المحلية غير الاعتيادية، وتراثهم المتعلق بعوائدهم، يمثل إحدى واجهات الحضارة" وهو يهنئ نفسه لكون لقائه مع هذا الشعب "وسع معرفته بأقدم شروط الإنسانية، بقدر لا يمكن أن تحصل من غيره".

وذلك لأنّنا نجد عند الزونيس انتظامًا حقيقيًا للكون. حيث كل الكائنات وكل وقائع الطبيعة "الشمس، القمر، النجوم، السماء، الأرض البحر بكل ظواهره وعناصره، الجمادات مثلما الحيوانات وبين بني البشر"

---

33 ليست هناك أسماء معروفة خاصة للإشارة إلى الفروع. ولذلك سنشير إليها من خلال أسماء القسمين القرانيين. ونلاحظ أنّ مدونة المصطلحات هي نفسها في نسق الكاميلاروي .kamilaroi.

34 وقد درس هذا الشعب بكيفية رائعة من طرف السيد كوشين M. Cushing وهم من أكثر الشعوب قدمًا ومن أكثرها تطورًا. لديهم عمل خزفي رائع، ويزرعون القمح، والخوخ الذي استقدمه الإسبان، كما أنّهم صائغون متميزون؛ وقد كانوا على صلة بالمكسيكين لأكثر من مائتي سنة. وهم حاليا كاثوليك، لكن على شاكلة خارجية فقط، إذ حافظوا على طقوسهم وعاداتهم ومعتقداتهم. يسكنون جميعًا بالبيبلو pueblo أي المدينة الواحدة، التي تتشكل في الواقع من ست أو سبع مجموعات من المنازل. وهذا ما يجعلهم يتميزون بكثافة وتركيز اجتماعيين، وبنزعة محافظة كبيرة في الوقت نفسه بملكة تأقلم وتطور. وإذا لم نجدهم بالبدائية التي يصفها كوشين، فمن المؤكد أنّنا بصدد فكر تطور انطلاقًا من مبادئ بدائية جدًا.

ولقد لخص كوشين تاريخ هذا الشعب، وإن كانت فرضيته حول الأصل المزدوج لهذا الشعب غير مثبتة بالمرة.

كلهم مصنفون ومرصودون لمكان معين داخل "النسق" الوحيد والمتين حيث تتناسق وتتشارط الأجزاء فيما بينها "حسب درجات القرابة".

وحسب الصورة التي يأخذها هذا النسق فهو يقوم على مبدإ يقسم الفضاء إلى سبع جهات: الشمال، الجنوب، الغرب، الشرق، سمت السماء ونظير سمت السماء du Zénith, du Nadir، وأخيرًا الوسط. وكل أشياء الكون تتوزع حسب هذه المناطق السبع. ولكي نحصر حديثنا فقط حول الفصول والعناصر، يسند إلى الشمال الريح والنسيم أو الهواء، وفصل الشتاء، إلى الغرب ينسب الماء، فصل الربيع، النسائم الرطبة لهذا الفصل، إلى الجنوب تسند النار، وفصل الصيف، إلى الشرق الأرض وبذورها ونهاية السنة.[35] البجع، والكركي، وطائر العفد، ديك نبتة القويصة، شجرة البلوط الخضراء إلخ.. هي أشياء الشمال؛ الدب، وابن آوى، وعشب فصل الربيع هي أشياء الغرب.أما الشرق فيسند إليه الوعل، والظبي، والديك الحبشي... وليس فقط الأشياء بل إنّ الوظائف الاجتماعية نفسها تتوزع على هذه الشاكلة. الشمال منطقة القوة والتدمير، كما أنّ الحرب تنتمي إلى الغرب، والسلام (هكذا نترجم المفردة الإنجليزية warcure والتي لم نفهمها جيدًا - المؤلف-) والصيد ينتميان إلى الجنوب؛ منطقة الحرارة، والزراعة، والطب؛ أما للشرق فمنطقة الشمس، والسحر، والدين، وإلى العالم العلوي والعالم السفلي تنسب وتعين مجموعة مركبة من الوظائف.

كما ينسب إلى كل منطقة لون يميزها. الشمال أصفر لأنّ نور الشمس حسب قولهم صفراء في طلوعها وغروبها؛ الغرب أزرق بسبب الشعاع الأزرق الذي يطالعنا عند غروب الشمس[36]، الجنوب أحمر لأنّه منطقة فصل الصيف والنار ذات اللون الأحمر. الشرق أبيض لبياض النهار. المناطق العليا مبرقشة كلوينات الأشعة بين السحب؛ أما المناطق السفلى فهي سوداء كأعماق الأرض. أما الوسط الذي هو سرة العالم لكونه يمثل كل المناطق فهو يتسم بكل الألوان.

لحدود الساعة يبدو أنّنا بصدد عملية تصنيف مختلفة عن تلك التي قمنا بدراستها سابقًا. لكن ما يسمح لنا باستشعار وجود علاقة وطيدة بين النسقين، هو كون ترتيب العالم هذا هو نفسه لدى العشائر الداخلية للبيبلو pueblo. "حيث إنّنا نجده مقسمًا إلى سبعة أقسام على شاكلة غير بينة لكنها واضحة جدًا بالنسبة إلى السكان الأصليين، وهذه الأقسام لا تتقابل من منظور طوبوغرافي، لكن من منظور ترتيبها في مناطق العالم السبع. ولذلك هناك قسمة يفترض فيها أنّها على علاقة بالشمال... وتمثل آخر وطيد الصلة بالغرب وآخر بالجنوب...." وهي علاقة قريبة إلى حد أنّ لكل منطق لدى البوبلو لونًا مميزًا، وذلك على منوال التناسب نفسه الخاص بالمناطق.

35 وإلا فإنّ بذور الأرض تموضع جنوبًا.

36 إنّنا نورد هذه التفسيرات دون أن نضمن قيمتها. لأنّ أسباب توزيع الألوان قد تكون أكثر تعقيدًا. لكن المبررات السابقة الذكر لا تفتقد للأهمية أيضًا. يرى كوشين أنّ ذلك يعود إلى لون المحيط الهادي، لكنه يغفل أنّ الزونيس لم يروا المحيط أبدًا.

الحال إنّ هذه التقسيمات تقابل ثلاث عشائر، باستثناء تلك المتموضعة في الوسط والتي لا تقابل إلا واحدة، "وكل هذه العشائر يقول السيد كوشين cushing هي طوطمية على غرار عشائر الهنود الأخرى" [37] والتي نورد قائمتها الكاملة، لأنّه سيكون من الضروري الرجوع إليها لأجل فهم الملاحظات اللاحقة.

في الشمال عشائر الكركي والبجع وطائر العقعق، وديك نبتة القويصة الخشب الأصفر وشجرة البلوط الخضراء (وهي عشيرة تلاشت تقريبًا).

في الغرب عشائر الدب، وابن آوى (كلب السهول) وعشب فصل الربيع.

في الجنوب عشائر التبغ والذرة وحيوان الغرير blaireau.

في الشرق عشائر الوعل والظبي وديك الحبش.

في سمت السماء عشائر الشمس (انقرضت) النسر والسماء.

في نظير السمت عشائر الضفدع أو العلجوم، وأفعى الجرس، والماء.

في الوسط عشيرة ببغاء الماكاو الذي يمثل عشيرة الوسط الكامل.

إنّ العلاقة بين توزيع العشائر وتوزيع الكائنات تبعًا للمناطق تبدو جليةً أكثر حينما نتذكر أنّه بصفة عامة، وفي كل مرة نصادف عشائر مختلفة تتجمع على منوال يسمح لها بتشكيل وحدة أخلاقية معينة، فيمكننا أن نكون على وجه التقريب متيقنين بأنّها عشائر مشتقة من عشيرة أولية بفعل التفريع. وإذا ما طبقنا هذه القاعدة على حالة الزونيس، يتوجب عندئذ افتراض وجود لحظة في تاريخ هذا الشعب، حيث كانت المجموعات الست للعشائر الثلاث تشكل عشيرةً واحدةً، وبعدها انقسمت إلى سبع عشائر[38]، توافق على وجه الدقة المناطق السبع. وهي فرضية راجحة للأسباب العامة السابقة الذكر، وهي علاوة على ذلك صريحة في إحدى الوثائق الشفوية البالغة القدم[39] حيث نجد قائمة بستة رجال دين كبار، هم الذين يمثلون داخل أخوية دينية شهيرة باسم "السكين" المجموعات الست. رجل دين الشمال هو أول عرق الدببة، صاحب الغرب أول عرق أبناء آوى، صاحب الجنوب أول عرق حيوان الغرير صاحب الشرق أول عرق ديك الحبش، صاحب العالم الأعلى أول عرق النسور، وأخيرًا صاحب العالم السفلي أول عرق الثعابين. وإذا ما عدنا إلى

37 إنّها بنوة أميسية، لأنّ الزوج يقيم عند زوجته.

38 بحساب عشيرة الوسط والقبول بأنّها تشكل مجموعة على حدة، خارج فرعي العشائر الثلاث؛ وهذا أمر غير أكيد.

39 وهو نص منظوم، لأنّ مثل هذه النصوص تصمد أكثر من النصوص النثرية. ومن المؤكد علاوة على ذلك، أنّ الزونيس حين انتمائهم إلى المسيحية إبان القرن الثامن عشر، كان لديهم تنظيم قريب مما درسه كوشين لديهم. فقد كانت الأخويات والعشائر نفسها على حال مثيل، وهو ما يمكنك إثباته من خلال سجلات المعمودية لرحلة التبشير.

القائمة السابقة، سنجد أنّ رجال الدين الستة يمثلون طوطيمات العشائر الست، التي تتوجه بالضبط حسب الحيوانات المقابلة، مع استثناء وحيد يتمثل في الدببة التي توضع حسب التصنيفات المتأخرة ضمن كائنات الغرب[40]. تنتمي هذه الحيوانات مع الاستثناء السابق إلى ما يكفي من المجموعات المختلفة. وتبعاً لذلك كل من تلك العشائر تستثمر حسب أولية خاصة في مجموعتها: فهي تعتبر الممثل والرئيس، لأنّ من خلالها أخذ التشخيص المشحون انفعاليًا لهذا التمثل. وبالتالي فهي العشيرة الأولية التي اشتقت منها باقي العشائر بفعل التفرع. وهذه واقعة عامة لدى البيبلوس وغيرهم، كون العشيرة الأولى داخل فرع معين هي في الوقت نفسه العشيرة الأصل[41].

بل أكثر من هذا، لا يوجد فقط تناسب وتطابق بين قسمة الأشياء حسب المناطق، وقسمة المجتمع حسب العشائر، بل إنّها متداخلة ومختلطة بحيث لا مجال لفصلها. فيصح أن نقول في الوقت نفسه إنّ الأشياء مصنفة حسب الشمال الجنوب ألخ..، أو حسب عشيرة الشمال، الجنوب إلخ.. وهو أمر بيّن بالنسبة إلى الحيوانات الطوطمية؛ التي تصنف حسب عشائرها أو حسب منطقتها[42]. وهو ما يسري على كل شيء وكل الوظائف الاجتماعية. التي رأينا كيف تصنف حسب الاتجاهات[43]؛ الحال أنّ هذا التوزيع يعود في الواقع إلى نوع من قسمة العشائر. وهذه الوظائف تمارس حاليًا من طرف أخويات دينية، أخذت تعوض العشائر في كل ما يتعلق بهذه الأعمال. الحال أنّ هذه الأخويات تتجند على أقل تقدير، بشكل أساسي داخل العشائر المرتبطة بالمناطق نفسها المقابلة لهذه الوظائف. وهكذا نجد مجتمعات السكين، وعصا الثلج والصبار، التي هي أخويات حرب، تتجمع "لا بكيفية صارمة بشكل تام، ولكن حسب مبدإ" إذ يؤخذ من عشائر الشمال والغرب أناس من سكيردوك sacerdoc، عشيرة القوس، وعشيرة الصيد؛ ومن عشائر الشرق "رجال الدين" أصحاب اللحائف القطنية والطائر الكاسر الذي يشكل أخوية الرقص الدرامي الكبير.(السحري والديني)؛ ومن عشائر الجنوب نأخذ مجتمعات النار الكبرى أو الجمر التي لم تعين لنا بشكل صريح، الوظائف التي تضطلع بها، ولكن من المؤكد أنّها تتعلق بالزراعة وبالطب[44]. وفي كلمة يمكن الحديث بدقة عن كون تصنيف الكائنات يتم من خلال العشائر، لا من خلال الاتجاهات، بل بالأحرى من خلال العشائر الموجهة.

ينبغي إذن أن يكون هذا النسق معزولاً خلف هوة عن النسق الأسترالي. ومهما كان الاختلاف المبدئي بين التصنيف من خلال العشائر والتصنيف من خلال الجهات، فإنّ التصنيفين معًا عند زونيس، يتداخلان

40 ومن المحتمل أنّه حدث تغيير في الوجهة فيما بعد.

41 ولأننا لا ننشغل الآن إلا بالمجموعات الست للعشائر الثلاث والتي تشكلت من خلال تفريع العشائر الست الأصلية، فسندع جانبًا العشيرة التاسعة عشرة التي سنعود إليها لاحقًا.

42 «وهكذا يحدد رجال الدين الآباء مخلوقات الصيف وأشياءه، وفضاء الجنوب كونها خاضعة لأناس الجنوب... وتلك المتعلقة بالشتاء والفضاء الشمالي لأناس الشمال.

43 نستعمل هذه الكلمة المختصرة للتعبير عن المناطق الموجهة.

44 في كل أمريكا هناك علاقة بين حرارة الشمس خصوصًا، وبين الزراعة والطب. وفيما يتعلق بالأخويات المتحيزة في الفوقية والتحتية، فإنّ وظيفتهم تكمن في توليد الحياة والحفاظ عليها.

ويتطابقان بشكل دقيق. بل يمكننا أن نذهب في القول أبعد من هذا، لأنّ الكثير من الوقائع تثبت أنّ التصنيف حسب العشائر هو الأكثر قدمًا، وأنّه كان نموذجًا بالنسبة إلى التصنيف الآخر.

1- إنّ تقسيم العالم حسب الاتجاهات لم يكن هكذا إلا منذ زمن معين، فهو تقسيم له تاريخ يمكن أن نعيد بناء واجهاته الأساسية. فقبل التقسيم السباعي كان هناك تقسيم سداسي نجد آثاره لحدود الساعة[45]. وقبل هذا الأخير هناك تقسيم رباعي يرتبط بالوجهات الأربع. وهذا بدون شك ما يفسر يقينًا السبب في كون الزونيس لم يميزوا سوى أربعة عناصر متموضعة في المناطق الأربع[46].

الحال أنّه لمن المثير للاهتمام أنّ تنويعات التصنيف حسب الاتجاهات تقابل بأخرى موازية بشكل دقيق للتصنيف حسب العشائر. ويتعلق الأمر دائمًا بقسمة سداسية للعشائر كانت سابقة بالتأكيد عن القسمة السباعية: ولذلك فإنّ العشائر التي يتم اختيار رجال الدين الكبار منها، والذين يمثلون القبيلة في أخوية السكين، هم ست عشائر. وأخيرًا إنّ هذه القسمة السداسية كانت مسبوقة بقسمة ثنائية حسب عشيرتين أساسيتين أو فرعين يستنفذان مجموع القبيلة؛ وهذه الواقعة ستتبث لاحقًا. لكن تقسيم القبيلة إلى فرعين إنّما يناسب ويقابل جدول الاتجاهات المنقسمة إلى أربعة أجزاء. فرع يوجد في الشمال وآخر في الجنوب، وبينهما خط فاصل يربط بين الشرق والغرب. وإنّنا لنلاحظ بشكل واضح لدى السيو Sioux العلاقة الرابطة بين هذا التنظيم الاجتماعي وبين التمييز بين الاتجاهات الأربعة الأساسية.

2- ومن الوقائع التي تؤكد أنّ التصنيف حسب الجهات لم يتراكب مع التقسيم حسب العشائر إلا بشكل متأخر إلى حد ما، هو أنّ ذلك التقسيم لا يتأقلم إلا بصعوبة وحسب توافق ما. فإذا ما التزمنا بمبدأ التصنيف الأول، ينبغي لكل أنواع الكائنات أن تصنف بالكامل في منطقة محددة، وواحدة بالضبط؛ على سبيل المثال كل النسور ينبغي أن تنتمي إلى المناطق العليا. الحال أنّ الزونيس يعرفون أنّ النسور توجد في كل المناطق. ولذلك يكون علينا القبول بأنّ كل نوع له مسكن يميل إليه بشكل أكبر. حيث يوجد في صورته المناسبة والكاملة. ولكن نفترض أنّ للأنواع نفسها ممثلين في مناطق أخرى، لكن في حجم أصغر وأقل كمالاً، ويتميزون بعضهم عن بعض من خلال الألوان الخاصة بكل منطقة ينسبون إليها: وهكذا بخلاف النسر المتموضع في سمت السماء، هناك نسور تمائم في كل المناطق، النسر الأصفر والأزرق والأبيض والأسود. وكل من هذه النسور له في منطقته جميع المواهب والقدرات التي تنسب إلى النسر بصفة عامة. وليس من المستحيل إعادة تأسيس المسار الذي اتبعه الزونيس لأجل بلوغ هذا التصور المعقد. إنّ الأشياء صنفت بداية حسب العشائر؛ وكل نوع حيواني تبعًا لذلك نسب بالكامل إلى عشيرة محددة. وهذه التخصيصات في مجموعها لا تطرح أي مشكل: لأنّه لا وجود لأي تناقض في اعتبار أنّ كل نوع يقيم علاقة قرابة مع هذه

45 إننا نعرف أنّ تصور الوسط هو ذو أصول متأخرة. فقد وجد في زمن محدد.

46 وتمثل المقاطع التالية دليلاً قويًا على هذه النقطة «إنّهم يحملون قنوات الأشياء الخفية التي تقابل المناطق الأربع» « يحملون دواليب العرافة الأربعة، المقابلة لمناطق الناس».

المجموعة الإنسانية أو تلك. لكن عند قيام التصنيف حسب الاتجاهات، خصوصًا حينما تفوقت على التصنيف الآخر، هنا ظهرت استحالة حقيقية: حيث إنّ الوقائع أصبحت تناقض موضعة حصرية ضيقة. فأصبح من الضروري أنّ النوع على الرغم من بقائه المركز في نقطة معينة، مثلما هو حال النسق القديم، أن يصبح أكثر تنوعًا بحيث يكون بمقدوره أن يتوزع حسب أشكال ثانوية، وواجهات مختلفة في كل الاتجاهات.

3- في حالات عدة نلاحظ بأنّ الأشياء كانت في لحظات محددة من الماضي، تصنف مباشرة حسب العشائر، ولا ترتبط إلا من خلال وسائط هذه الأخيرة مع الاتجاهات الخاصة بها.

أولاً وبينما كل من العشائر الست التي لم تقسم بعد، فإنّ الأشياء، التي أصبحت منذئذ طوطيمات العشائر الجديدة التي تشكلت، كان يتوجب عليها أن تسند إلى العشيرة الأولية من حيث هي طوطيمات ثانوية، وأن تشترط بطوطم العشيرة. فهي أصبحت تمثل أنواعًا لهذا الطوطم.

والاشتراط والتعالق المباشر نفسيهما يتحققان الآن أيضًا، بالنسبة إلى قسم محدد من الكائنات، أقصد الطرائد على وجه الدقة، التي تتوزع على ستة أقسام، وكل قسم يجعل تحت شرط حيوان صيد محدد وإسناده. وكل الحيوانات التي تمنح هذه الامتيازات تقيم في منطقة محددة: في الشمال أسد الجبال الأصفر اللون؛ في الغرب الدب الغامق اللون، في الجنوب حيوان الغرير الأبيض والأسود، في الشرق الدب الأبيض، في سمت السماء النسر، في نظير السمت فأر الخلد الذي هو في سواد أعماق الأرض. وتوجد أرواح هذه الحيوانات في تجميعات الحجر التي تتمثل عبر الشكل الذي تتقمصه، أو في حالة تعذر ذلك، من خلال لونها المميز. على سبيل المثال يتعلق بالدب ابن آوى، وأغنام الجبال إلخ..[47] وبالتالي إذا ما أردنا صيدًا وفيرًا من هذه الحيوانات يكون علينا أن نستعمل تميمة الدب أو صنمه أثناء الطقوس المرسومة لذلك.[48] الحال أنّ ما يثير الاهتمام هو أنّ ثلاثة من هذه الحيوانات الستة ما تزال تستعمل كطوطيمات عشائر قائمة إلى حدود الآن، وهي موجهة على منوال توجُّه هذه العشائر نفسها؛ أقصد الدب وحيوان الغرير والنسر. في المقابل إنّ أسد الجبال ليس سوى معوض لابن آوى الذي كان في السابق طوطم إحدى قبائل الشمال. فحين ينتقل هذا الأخير إلى الغرب، يترك بعضًا من الأنواع المرتبطة به لأجل تعويضه في الشمال[49]. ولذلك هناك لحظات حيث كانت أربعة من هذه الحيوانات المميزة طوطيمات. أما فيما يتعلق بحيوان الخلد وبالذئب الأبيض، فيلاحظ

47 إنّ توزيع الطرائد على ستة حيوانات صيد توجد في عدة أساطير، لكن لا تتوافق في التفاصيل، إلا أنّها تقوم على المبادئ نفسها. وهذه الاختلافات يمكن أن تفسر بسهولة من خلال التغيرات التي حدثت في اتجاهات العشائر.

48 تتناسب الحيوانات التميمية بدقة مع حيوانات الطرائد الستة، إلا في حالتين. ويرجع الانزياح ببساطة إلى أنّ هذين النوعين عوضا بنوعين آخرين لهما قرابة بالأولين.

49 وما يثبت ذلك، هو أنّ تميمة ابن آوى الصفراء، تسند إلى الشمال من حيث هي نوع ثانوي، لكنّها مع ذلك تتفوق على تميمة ابن آوى الأزرق الموجود في الغرب.

أنّه ليس هناك من طوطم لدى عشيرة سمت السماء ونظير السمت يقابل حيوان صيد[50]، لذلك يتعين البحث عن معوضات لهما.

وهكذا فإنّ مختلف ضروب الطرائد ينظر إليها باعتبارها متعلقة مباشرة بالطوطيمات أو ببدائلها. ولا ترتبط باتجاهاتها الخاصة إلا من خلال هذه الأخيرة. مما يعني أنّ تصنيف الأشياء حسب الطوطيمات، أي تبعًا للعشائر كان سابقًا على التصنيف حسب الاتجاهات.

وحسب منظور آخر أيضًا، إنّ الأساطير نفسها تشهد على أسبقية الأصل هذه. فحيوانات الصيد ليست مرتبطة فقط بالطريدة، ولكن أيضًا بالجهات الست، فكل منها تسند إليه جهة، يكون هو حارسها. وعبرها تتواصل الكائنات المقيمة في هذه المناطق مع الإله خالق البشر. ولذلك فإنّ المنطقة وكل ما يرتبط بها ينظر إليه حسب اشتراط معين مع هذه الحيوانات الطوطمية. وهذا ما لا يمكن أن يحدث لو أنّ التصنيف حسب الجهات كان سابقًا.

هكذا نجد خلف التصنيف حسب الجهات، الذي كان في البداية جليًا، نظام تصنيف آخر، متطابق على كل الواجهات مع ما وجدناه سابقًا لدى الأستراليين. وهذا التماهي أصبح أكثر وضوحًا بناءً على ما سبق. فلم تصنف الأشياء فقط حسب العشائر، بل إنّ هذه الأخيرة نفسها صنفت حسب فرعين رئيسيين مثلما هو الأمر داخل المجتمعات الأسترالية. وهو ما يمكن استنتاجه بشكل مؤكد من إحدى الأساطير التي يوردها السيد كوشين. يحكي الزونيس أنّ رجل الدين والساحر أحضر زوجين من البيْض، للبشر الذين كانوا حديثي عهد بالظهور في النور؛ أحد هذين الزوجين كان في زرقة قاتمة شبيهة بالسماء؛ والآخر في حمرة الأرض- الأم. وأخبرهم أنّ في أحدهما يوجد الصيف وفي الآخر الشتاء، داعيًا إياهم إلى الاختيار. أول من قام بالاختيار أخذ الزوج ذا اللون الأزرق، الذي سيتمتعون به مادام الصغار لم ينبت لهم ريش، لكن ما يكاد هذا الأخير ينمو حتى يصبح الصغار سودًا، إنّهم غربان يمثل نسلهم آفةً فعليةً، وسيرحلون نحو الشمال. أما من سيختار البيض الأحمر فيطالعون بمولد ببغاء الماكاو اللامع، وسيكون لهم أن يقتسموا الحكم والحرارة والسلام، وهكذا تقول الأسطورة، انقسم وطننا بين رجال الشتاء، ورجال الصيف.. تحول الأوائل إلى بباغاوات المكاو أو المولتا-كو بينما تحول الآخرون إلى غربان الكاكاكوي[51] ka-ka-kwi ومن هنا ابتدأ المجتمع ينقسم إلى فرعين يتموضع أحدهما في الشمال، والآخر في الجنوب؛ متخذين الغراب طوطمًا، وهو ما لم يعد له وجود حاليًا، وببغاء الماكو الذي ما يظل صامدًا[52]. بل لقد حافظت الميثولوجيا على ذكرى انقسام كل فرع إلى عشائر. إذ تقول الأسطورة إنّهم تبعًا لطبيعتهم، وأذواقهم، ومواقفهم تحول أناس الشمال أو رجال الغراب،

50 هناك الثعبان الذي هو طوطم ندير السمت، الذي هو حسب الأفكار الحالية، حيوان صيد. لكنه ليس كذلك بالنسبة إلى الزونيس، لأنّ هذا النوع من الحيوان لابد أن يكون له مخالب.

51 يبدو أنّ هذا الاسم كان يشير في القدم إلى طائر الغراب. وهذا التماثل ثبت في كل الأسئلة المتعلقة بمدى ارتباط هذه المفردة بعيد الكاكاكوي.

52 إنّ عشيرة الببغاء، الوحيدة الآن في منطقة الوسط، فهي إذن العشيرة الأولى، وأصل فرع الصيف.

إلى جماعة الدببة، أو أبناء آوى، أو الظبي، أو الكركي...ألخ.. والأمر نفسه بالنسبة إلى قوم الجنوب أو ببغاء الماكو. ما أن تشكلت العشائر إلا وبدؤوا في اقتسام روح الأشياء: مثلاً عشيرة غزال الموظ ستأخذ بذور البرد، والثلج؛ عشائر العلجوم ستؤول إليها بذور الماء.. ألخ... وهذا دليل آخر على أنّ الأشياء صنفت بداية حسب العشائر والطوطيمات.

يحق لنا الاعتقاد إذن بأنّ نظام الزونيس[53] هو في الواقع تطوير وتعقيد لنظام التصنيف الأسترالي. ولكن ما يُتم إثبات واقعية هذا الطرح، هو إمكان بلوغ الحالات الوسيطة التي تربط بين النماذج المتباعدة، ومن ثمة تبين كيف أنّ الثانية مشتقة من الأولى.

وتوجد قبيلة سيو Sioux من الأوماهاس، بالضبط في هذه الوضعية المختلطة: حيث إنّ تصنيف الأشياء حسب العشائر ما يزال قائمًا وواضحًا على الخصوص، بينما التصور النسقي للمناطق مافتئ في طور التشكل.

القبيلة تتشكل من فرعين يضمان خمس عشائر. وهي تتشكل أساسًا من النسل الذكوري؛ وهذا يعني أنّ التنظيم الطوطمي، وعبادة الطوطم هي في وضعية سقوط[54]. لأنّ كل فرع ينقسم بدوره على نفسه إلى عشائر ثانوية، تنقسم بدورها. ويخبرنا السيد دورسي بأنّ هذه المجموعات المختلفة تقتسم كل الأشياء. ولكن إذا لم يكن هذا التصنيف قائمًا الآن، ولم يبلغ شكلاً مكتملاً، فمن الجائز والمقبول جدًا أنّه كان كذلك في الماضي. وهذا ما تظهره دراسة عشيرة واحدة ومكتملة [55] ظلت صامدة إلى حدود الوقت الراهن، أقصد

---

53 نتحدث عن نسق الزونيس لأنهم من أخضع نظامهم إلى ملاحظة كاملة. ولكننا لا نستطيع أن نحسم فيما إذا كان هنود البوبلوس تصرفوا على الشاكلة نفسها. ولكننا نعرف أنّ الابحاث التي أجراها السادة فيوكس Fewkes وبورك Bourke، اليد ستيفنسون، دورزي Dorsey تؤدي إلى نتائج شبيهة. وما هو مؤكد أننا نجد عند هوبيس الولابي Hopis de Walpiو التوزايان Tusayan تسع مجموعات من العشائر تقابل تلك التي صادفناها في الزونيس: وأول عشيرة من هذه المجموعات تحمل اسم المجموعة بأكملها، وهو دليل على أنّ هذه المجموعة هي وليدة تفريع لعشيرة أولية. وهذه المجموعات تضم ما لا يعد من الطوطيمات الثانوية التي تستنفد كل الطبيعة. ومن جهة أخرى هناك إشارة صريحة بالنسبة إلى هذه العشائر إلى الجهات الأسطورية المحددة. وهكذا إنّ عشيرة ثعبان الجرس الآتية من الغرب والشمال تضم أشياء موجهة على هذا الأساس: ضروب من الصبار، طير الحمام، حيوان الغرير، إلخ... ومن الشرق أتت مجموعة العشائر وطوطمها قرن الوعل، الظبي، ونعاج الجبل. وكل مجموعة تتأصل من منطقة موجهة بشكل دقيق. من جهة أخرى إنّ رمزية الألوان تقابل تلك التي وجدناها عند الزونيس. كما أنّ الوحوش الكاسرة والطرائد موزعة على شاكلة ما نجد عند الزونيس، مع فارق هو أنّ هذه الاتجاهات لا تتطابق مع الجهات الأربع.

ويبدو أنّ بيوبلو المخرب لسيا يحتفظ بذكرى واضحة لهذا الشكل الفكري الجمعي. وما يثبت أنّ الأشياء قسمت أولاً على أساس العشائر، وبعد ذلك على أساس المناطق والجهات، هو وجود ممثل عن الحيوان المقدس في كل منطقة. ولكن في الوقت الراهن لا توجد هذه العشائر إلا على شاكلة مقاومة لأجل البقاء.

ونعتقد أنّه يوجد لدى النافاهوس Navahos مناهج تصنيفية شبيهة. فضلاً عن أننا مقتنعون، دون إمكانية إثبات ذلك، بأنّ الكثير من رمزية الهويشولس Huichols والأزتيك "البيوبلوس الآخرين" حسب تعبير مورغان، كل ذلك يجد تفسيره الحاسم في وقائع من هذا القبيل. وهي الفكرة التي عبر عنها باول Powell، ماليري Mallery وسيروس ثوماس .Cyrus Thomas.

54 في الواقع حينما يكون النسل ذكوريًا، فإنّ النحلة الطوطمية تضعف وتميل إلى التلاشي (voir Durkheim, «La prohibition de l'inceste», *Année sociologique, 1, p.* 23). وقد أشار دورسي إلى تفسخ هذه النحل (*Siouan Cults, p.* 391).

55 يبدو لنا أنّ الأمر كان يتعلق بعشيرة الدب؛ وهو في الواقع اسم العشيرة الثانوية، كما أنّ ما يقابلها في العشائر الأخرى يوجد في قبائل السية الأخرى وهي عشيرة الدب.

عشيرة الشاتادا chatada، التي تمثل جزءًا من الفرع الأول. ولندع العشائر الأخرى جانبًا لاحتمال أن تكون منقوصة، وهي على الرغم من ذلك تطالعنا غالبًا بالظواهر نفسها، وإن بدرجة أقل تعقيدًا.

إنّ دلالة الكلمة المستعملة في تسمية القبيلة غير واضحة؛ لكننا نملك قائمة كاملة عن الأشياء التي تعود إليها. وتضم هذه القبيلة أربع عشائر ثانوية، هي بدورها خاضعة للتفريع[56].

عشيرة الدب الأسود الثانوية، تضم الدب الأسود، والراكون، والدب الغريزلي، الشيهم، التي تبدو طوطيمات مناطق.

عشيرة "الذين لا يأكلون الطيور الصغيرة" تتعلق بها طيور الباز 2 - الطيور السوداء التي تنقسم هي نفسها، إلى ذات الرؤوس البيضاء، والحمراء، والصفراء، والأجنحة الحمراء -3 الطيور السوداء-الرمادية أو "أناس السيل" التي تنقسم بدورها إلى قبرة المراعي، ودجاج السهول 4 طيور البوم المنقسمة بدورها إلى الصغرى والمتوسطة والكبيرة.

العشيرة الثانوية الثالثة المتعلقة بالنسر، وتضم ثلاثة أنواع من النسور؛ وقسمًا آخر أيضا لا يبدو أنه يعود إلى نظام من الأشياء المحددة، يسمى "العمال".

وأخيرًا العشيرة الثانوية الرابعة المتعلقة بالسلحفاة. وترتبط بالضباب الذي بمقدور أفرادها أن يوقفوه[57]. وتحت نوع السلحفاة توجد أربعة أنواع خاصة من الحيوان نفسه. ولأنّ لنا من المبررات ما يسمح بالاعتقاد بأنّ هذه الحالة ليست فريدة، وأنّ هناك الكثير من العشائر التي تتصف بمثل هذه الأقسام الرئيسة والأقسام الثانوية، فيحق لنا أن نفترض بدون تسرع أنّ نظام التصنيف، الذي ما يزال يلاحظ عند الأوماهاس، كان أكثر تعقيدًا مما هو عليه الآن. حيث تظهر بجانب توزيع الأشياء، الشبيهة بما لاحظناه في أستراليا، صور أولية لتصورات الجهات.

وحينما تضع القبيلة خيامها، فإنّ ذلك يكون على نحو دائري، وكل مجموعة لها مكانها المحدد داخل هذه الدائرة. ويتموضع الفرعان تباعًا على يمين وعلى شمال الطريق التي اتبعت من طرف القبيلة، حيث تعين نقطة البداية معلمًا. وفي نصف الدائرة حيث يوجد كل فرع، لأنّ العشائر نفسها يتموقع بعضها إزاء بعض، وعلى النول نفسه تتصرف العشائر الثانوية. وتبرر الأماكن المحددة لها حسب الوظائف الاجتماعية، أكثر منها باسم القرابة، ولذلك فإنّ الأمر يتبع الأشياء المسندة إليهم، والتي من المفترض أن يمارسوا عليها

56 يستعمل دورسي للتعبير عن هذه التجمعات مصطلح ذرية وذرية ثانوية. ولا يبدو أنّنا في حاجة إلى نحت عبارات جديدة لتسمية العشائر المنسوبة إلى الجانب الذكوري. إنّه مجرد نوع داخل جنس.

57 الضباب هو بدون شك ما يمثل بالسلحفاة. كما نعرف أنّ الضباب والعاصفة تنسب لدى الإيروكوا Iroquois إلى عشيرة الأرنب.
« Origin of Totemism », *Fortnightly Review, 1899, p. 847.*

أعمالهم. وهكذا فداخل كل فرع، توجد عشيرة لها علاقات خاصة بالسيل وبالحرب، إحداهما عشيرة الوعل والأخرى عشيرة الإسكاتانداس، حيث يقيمان وجهًا لوجه عند مدخل مضرب الخيام، الذين هم حماته. وتتموقع العشائر الأخرى علاوة على ذلك على نحو طقوسي أكثر منه واقعي، إزاء العشيرتين الرئسيتين حسب المبدإ نفسه. وهكذا تنتظم المجموعات داخل المخيم في آن انتظام الأشياء المسندة إليها نفسه. حيث يقتسم الفضاء بين العشائر وبين الأشياء والأحداث إلخ... المشتقة منها. لكن ما نلاحظه هو أنّ هذا النظام ينطبق فقط على الفضاء الذي تقيم عليه القبيلة وليس على الفضاء الكوني بأكمله. إنّ العشائر والأشياء ليست متموضعة حسب الاتجاهات الرئيسية، وإنّما فقط حسب مركز مضرب الخيام. التقسيمات لا تعود إلى المشارق والمغارب ولكن اعتمادًا على الأمام والخلف، انطلاقًا من تلك النقطة المركزية[58]. بالإضافة إلى ذلك إنّ هذه التقسيمات الخاصة تسند إلى العشائر، لا هذه الأخيرة هي التي تسند إلى التقسيمات، مثلما هو الحال عند قبيلة الزونيس.

ويأخذ تصور الجهة تميزًا أكثر لدى قبائل سيو أخرى. فالأوزاج osages وعلى منوال الأوماهاس ينقسمون إلى فرعين يتموضعان بعضهما على يمين بعض ويساره، لكن بينما عند الأوماهاس تتداخل وظائف الفرعين في نقط معينة (لقد سبق وأن رأينا أنّ كلا منهما يتوفر على عشيرة للسيل وللحرب)، فإنّها لدى الآخرين متمايزة بشكل واضح. فنصف القبيلة أعدت للحرب، والنصف الآخر للسلم. وهذا ما ينتج عنه موقعة أكثر دقة للأشياء. ونجد التنظيم نفسه عند الكنساس. بالإضافة إلى هذا كل عشيرة رئيسية وثانوية تقيم علاقة خاصة مع الجهات الأربع الرئيسية[59]. وأخيرًا نتقدم خطوة أكثر مع قبيلة البونكاس[60]، فكما عند سابقيهم، تتشكل الدائرة وتقتسم بشكل سوي بين الفرعين، لكن من جهة أخرى كل فرع يتشكل من أربع عشائر، لكنها تعود كلها إلى مجرد ضعفين، لأنّ كل عنصر مميز يسند إلى العشيرتين في الوقت نفسه. وهذا ما ينجم عنه ترتيب الأشياء والأشخاص كالتالي: تقسم الدائرة إلى أربعة أجزاء، في الجزء الأول على يسار المدخل توجد عشيرتا النار أو الرعد؛ في الجزء الخلفي عشيرتا الريح، في الجزء القائم على اليمين عشيرتا الماء، خلفهما عشيرتا التراب. وبالتالي فكل من العناصر الأربعة يتموقع في المكان نفسه بالضبط من قطاعات محيط الدائرة العام. وبالتالي يكفي أن يتطابق أحد محاور هذه الدائرة مع محاور دوارة الريح

58 لأجل أن نفهم كيف أنّ جهات العشائر غي محددة بالنسبة إلى الاتجاهات الأربعة، يكفي أن نتمثل تغييرها الجذري للطريق التي اتبعتها انطلاقًا من كون الطريق الأول كان من الشمال إلى الجنوب، أو من الشرق إلى الغرب، أو العكس. وهكذا قد غامر دورسي وماك جيي Mac Gee إلى حد بعيد من خلال مقاربة نسق الأوماها في التصنيف الكامل للعشائر والأشياء والمناطق.

59 داخل طقس الطواف حول الجهات الأربع، نقطة الانطلاق تختلف حسب العشائر.

60 وهي قبيلة ذات طوطيمات ثانوية مهمة..

la rose des vents لكي تتوجه العشائر والأشياء حسب الاتجاهات الرئيسة. والحال أنّنا نعرف أنّ المدخل بالنسبة إلى هذه القبائل يكون موجهًا نحو الغرب[61].

لكن اتخاذ هذه الوجهة (وهي فرضية في جزء منها) يظل غير مباشر. فالمجموعات الثانوية للقبيلة، مع كل متعلقاتها، توجد في المناطق غير الموجهة بشكل واضح ودقيق، ولكن في كل الحالات لا يوصف لأي منها باعتباره يقيم علاقة خاصة بقطعة من الفضاء العام. فكذلك هنا يظل الارتباط منحصرًا بفضاء القبيلة، ونستمر لذلك بعيدين كثيرًا على الزونيس[62]. ويلزمنا كي نقترب منهم أن نغادر أمريكا ونعود نحو أستراليا. فداخل إحدى القبائل الاسترالية حيث سنجد جزءًا مما ينقص عند السيو، وهي حجة جديدة وذات أهمية خاصة، على أنّ ما دعوناه إلى حدود الساعة بالنسق الأمريكي والنسق الأسترالي، لا يرتبطان فقط بأسباب محلية، كما أنّه ليس من المتعذر اختزال بعضهما بعضًا.

ويتعلق الأمر بقبيلة وتجوبالوك التي سبق وأن تناولناها. ومن المؤكد أنّ السيد هويت الذي يعد مصدرنا حول هذه القبيلة لم يقل بأنّ الاتجاهات الأربعة قد لعبت دورًا في تصنيف الأشياء؛ وليس لنا أي مبرر لكي نشكك في دقة ملاحظاته حول هذه المسألة. لكن فيما يخص العشائر، فليس هناك من شك، أنّ كلاً منها ترتبط بفضاء محدد، يعتبر خاصتها فعلاً. لكن لا يتعلق الأمر هاهنا بمنطقة من مضارب الخيام، وإنّما بقطعة من الأفق العام. ولذلك فكل عشيرة يمكن أن تموقع على دوارة الرياح. بل إنّ العلاقة بين العشيرة وبين فضائها هي من الحميمية بحيث كل الأعضاء ينبغي أن يدفنوا في اتجاههم الخاص المحدد "فمثلاً يدفن الفرد من قبيلة فارتوفوت wartwut الريح الساخنة[63]، ورأسه متجهة قليلا إلى الشمال الغربي، أي باتجاه مهب الريح الساخنة في بلادهم" ومن ينسبون إلى الشمس يدفنون ورؤوسهم متجهة نحو الشمس، وهكذا دواليك بالنسبة إلى الباقين.

وإنّ تقسيم الفضاءات لوثيق الصلة بما هو أساسي داخل التنظيم الاجتماعي لهذه القبيلة، والذي يرى فيه السيد هوييت "منهجًا ميكانيكيًا مستعملاً من طرف الفوتجوبالوك، لأجل حفظ وعرض قائمة فروعهم وطوطيماتهم وعلاقاتهم مع مختلف الجماعات بعضها مع بعض". ولذلك لا يمكن أن تكون هناك قرابة بين

61 عند الوينباغوس Winnebagos حيث نجد توزيع العشائر والأشياء نفسه، يوجد المدخل غربًا. لكن لاختلاف في هذا الأخير لا يغير الشاكلة العامة لمضارب القبيلة. والترتيب نفسه نجده أيضًا لدى الأوماهاس، ليس في التجمع العام، ولكن في التجمعات الجزئية على الأقل لبعض العشائر. وهو على وجه الخصوص حال عشيرة الشاتادا. ففي الدائرة التي يقيمونها حين اجتماعهم يتموضع التراب والنار والريح والماء بالضبط على الشاكلة نفسها في القطاعات المختلفة.

62 هناك على الرغم من ذلك قبيلة عند السيو حيث تصنف الأشياء حسب الاتجاهات مثلما هو الحال عند الزونيس؛ الداكاتاس Dacotahs. لكن العشائر اختفت لدى هذه الشعوب، وبالتالي التصنيف حسب العشائر. وهو ما يمنعنا من جعلها جزءًا من استدلالنا. تصنيف الداكوتا قريب جدًا من التصنيف الصيني الذي سندرسه فيما بعد.

63 هذه الكلمة تعني في الوقت نفسه الشمال، والريح الشمال الغربي، والريح الساخن.

عشيرتين إذا لم يكن بينهما تجاور في الفضاء. الأمر الذي يظهر من خلال الشكل التالي[64]، والذي أنشأه هويت بمساعدة أحد السكان الأصليين، وهو يتصف بذكاء كبير. فلأجل أن يصف تنظيم القبيلة، بدأ بوضع عصا موجه على وجه الدقة إلى الشرق، لأنّ نغاوي ngaui الشمس يمثل الطوطم الرئيس وانطلاقًا منه تتحدد باقي الطوطيمات. وبعبارة أخرى إنّ الأمر يتعلق بعشيرة الشمس، ومن ثمة إنّ اتجاه شرق غرب هو ما يمنح الاتجاهات الكبرى العامة لفرعي كروكتيش وغاموتش، توجد الأولى فوق الخط شرق- غرب، والأخرى تحته. ويمكن أن نلاحظ على الشكل التالي أنّ gamutch توجد بشكل كامل في الجنوب، بينما الأخرى توجد كاملة في الشمال. هناك عشيرة واحدة من الكروكتيش رقم 9، تتجاوز الخط شرق-غرب وهناك دواعٍ كثيرة للاعتقاد بأنّ الأمر يتعلق إمّا بخطإ في الملاحظة أو بنوع من الخلل الذي طال نظام التصنيف الأول[65]. وهكذا سيصبح لنا فرع شمالي وآخر يتموقع في الوسط بشكل شبيه تمامًا بما لاحظناه عند مجتمعات أخرى.

أما فيما يخص المحور شمال جنوب فيتحدد على وجه الدقة شمالاً بعشيرة البجع من فرع كروكيتش، وفي الجهة الجنوبية، من طرف عشيرة من فرع الغاموتش تحمل الاسم نفسه. وهكذا يصبح لدينا أربعة قطاعات حيث تقيم العشائر. وكما هو الحال لدى الأوماهاس، إنّ النظام الموزع لإقامة العشائر يترجم نوع القرابة بين الطوطيمات. وتدعى الفضاءات التي تفصل بين العشائر ذات القرابة بالعشيرة الأولى، والتي تمثل باقي العشائر فروعًا لها. وهكذا العشيرة 1 و2 تدعى بالإضافة إلى الفضاء الوسيط "المنتمون إلى الشمس"؛ العشيرة 3 و4 والفضاء البني يدعون "العمود الشراعي الأول"، وهو ما يمثل مرادفًا للشمس، وكما سبق وبيّنا إنّ كل القطاع الممتد من الشرق إلى الشمال يعد من الأشياء الشمسية. وبالمثل إنّ العشائر من 4 إلى 9 المتوزعة من الشمال إلى الغرب هي فروع لعشيرة البجع المتأصلة في الفرع الأول. كل ذلك يظهر مدى انتظام توزيع الأشياء ودقته في هذا السياق.

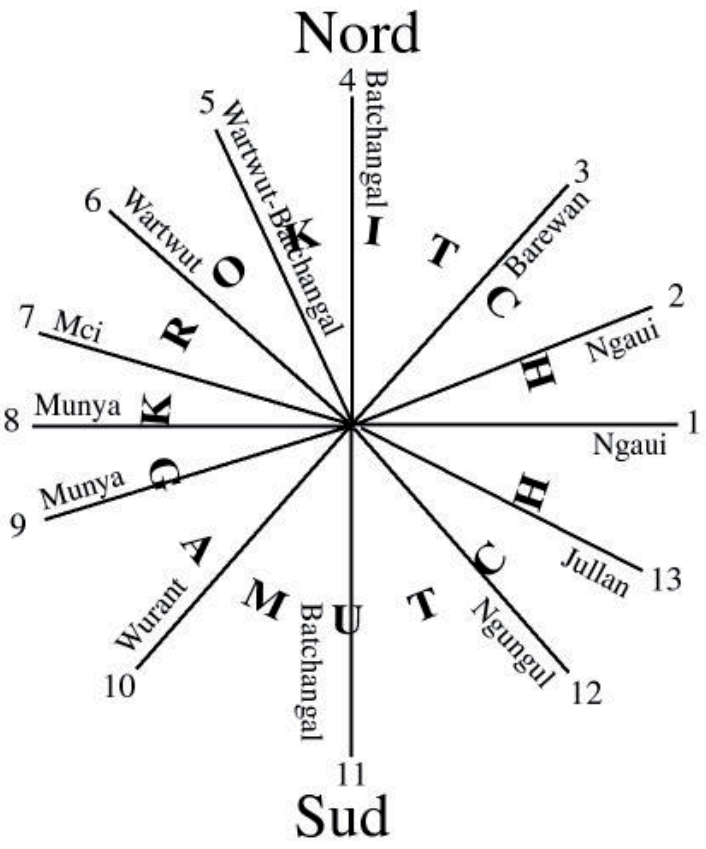

64 يمكن أن ترجم أسماء القبائل على هذا النحو: 1 و2 *(ngaui)* الشمس: *3 (barewum)*، القبو (؟): *4* و*11 (batchangal)*، البجع: *5* *5 (wartwut-balchangal)* بجع الريح الساخن *6 (wartwut)* الريح الساخن *7* ثعبان التابيس: *8* و*9 (munya)* الكنغر (؟) *10 (wurant)*، عمود الشراع الأمامي الأسود: *12 (ngungul)* البحر: *13 (gallan)*، *(gallan)* البحر: *13* الصل القاتل.

65 وفي الواقع إنّ السيد هويت يخبرنا أنّ دليله نفسه كان لديه بعض التردد حول هذه النقطة. ومن جهة أخرى إنّ هذه العشيرة هي نفسها العشيرة 8 ولا تختلف إلا ببعض الطوطيمات الجنائزية.

باختصار، ليس فحسب حيث يتعايش شكلاً التصنيف مثلما هو الحال عند الزونيس، تكون لدينا مبررات الاعتقاد بأنّ التصنيف حسب العشائر والطوطيمات هو الأقدم، بل بإمكاننا أن نظهر أيضًا، من خلال تتبع مختلف المجتمعات التي استقصيناها، كيف ينبثق النظام الثاني من الأول، وكيف ينضاف إليه.

وداخل المجتمعات التي يتسم نظامها بالطابع الطوطمي، هناك قاعدة عامة تتمثل في توزع العشائر والفروع، والعشائر الثانوية حسب علاقة القرابة والتشابه أو الاختلاف فيما يخص وظائفها الاجتماعية. فلأنّ للفرعين شخصيتين متمايزتين، ولأنّ كلاً منهما يلعب دورًا مختلفًا في حياة القبيلة، فهما يتقابلان بشكل عكسي مكانيًا؛ إحداهما تقيم في جانب والأخرى في جانب آخر، إحداهما تتخذ اتجاهًا والأخرى تتوجه عكسه. والعشائر داخل هذه الفروع هي من القرابة أو التباعد بقدر ما تتقارب أو تتنافر الأشياء المرصودة لها. وهذه القاعدة جلية وواضحة في المجتمعات التي سبق وأن تحدثنا عنها. فقد رأينا فعلاً أنّه عند الزونيس، وداخل البوبلو، كل عشيرة توجه في اتجاه المنطقة المنسوبة إليها؛ وكيف أنّ داخل أراضي السيو، إنّ الفرعين المكلفين بمهام مختلفة، يقيمان على نحو متضاد أحدهما على اليسار والآخر على اليمين، أحدهما شرقًا والآخر غربًا. لكن ظواهر شبيهة توجد داخل قبائل أخرى متعددة. حيث نسجل مثل هذا التقابل حسب الوظائف والمواقع، عند الإيروكوا uroquois وعند wyandols ويانداوس، والسيمينولوس séminoles وهي إحدى القبائل المتبقية عن قبيلة الفلوريد، وكذلك نجد الأمر نفسه عند الثلينكيس thlinkits من هنود اللوشو loucheux، وهم من أكثر الهنود هجانة، لكن أيضًا الأكثر بدائيةً[66]. وليس التموقع المتصل بالفروع والعشائر بأقل صرامة عند الميلانزي، ويكفي أن نتذكر في هذا الصدد ما سبق وأن أوردناه حول انقسام القبائل إلى فرع الماء وفرع التراب، وكيف يقيم الأول تحت الريح والآخر صوبه. وفي الكثير من القبائل الميلانزية، هذا التقسيم الثنائي هو ما تبقى من التنظيم القديم. ولقد صادفنا في أستراليا مرارًا ظواهر التموضع نفسها. ولذلك حتى حينما ينبث أعضاء الفرع نفسه داخل مجموعات محلية متعددة، فإنّهم يحافظون على التقابل نفسه داخلها. ولكن هذه التدابير واختيار الاتجاهات تكون أظهر عند تجمع القبيلة بأكملها. ويبدو ذلك جليًا عند الأرونتاس، بل نجد لديهم علاوة عن ذلك، تصورًا حول اتجاه خاص محدد بشكل أسطوري لكل عشيرة على حدة. فتتوجه عشيرة الماء نحو منطقة يفترض فيها أنّها منطقة أسطورية للماء، وفي هذا الاتجاه حيث يعتقد أنّ الأجداد الأسطوريين يقيمون، الألشيرينغاسalcheringas حيث يوجه الموتى. كما يستحضر اتجاه العشيرة الأسطورية للأم في إطار بعض الطقوس الدينية (ثقب الأنف، اقتلاع الناب الأعلى[67]). أما عند قبيلة الكولان وداخل مجموع القبائل المقيمة في غالس- الجديدة جنوبًا، توضع كل العشائر في التجمع القبائلي حسب نقطة الأفق التي أتوا منها.

66 عند قبيلة اللوشو Loucheux هناك فرع يمين وفرع يسار وفرع وسط.

67 إنّنا ها هنا إما بصدد بداية، أو متبق من موضعة العشائر. ونحن نعتقد أنّ الأمر يتعلق بما تبقى من عملية الموضعة. فإذا قبلنا بأنّ العشائر موزعة بين الفروع، فلابد أن تكون العشائر موجهة لكون الفروع كذلك.

انطلاقا من هذه المعطيات، بمقدورنا أن نفهم بسهولة كيفية نشوء التصنيف حسب الجهات. فقد رتبت الأشياء أول الأمر حسب العشائر والطوطيمات. لكن التموضع المحلي الضيق الذي تحدثنا عنه للتو، استدعى بالضرورة موضعة للأشياء المنسوبة إلى العشائر. ففي اللحظة التي تخرج فيها عشيرة الذئب من مضارب القبيلة، يكون ذلك مآل كل الأشياء المتعلقة بالطوطم نفسه. وتبعًا للوجهة الدقيقة التي يتخذها المخيم في إقامته، يترتب تأثير ذلك في اتجاهات كل أطراف المخيم وأجزائه، بما يضم من أشياء وأشخاص. ويمكن القول بصيغة أخرى، إنّ كل كائنات الطبيعة تصبح مُدرَكة في إطار علاقة خاصة ومحددة مع أجزاء بعينها من الفضاء. لكن ما من شك أنّ الفضاء المعني بهذا التقسيم والتوزيع هو الفضاء القبلي. غير أنّه ما دامت القبيلة تشكل بالنسبة إلى البدائي كل الإنسانية، فإنّ أبا القبيلة هو بالنسبة إليه خالق الإنسان، ولذلك فإنّ فكرة مضرب القبيلة تتداخل لديه مع فكرة العالم[68]. إنّ مقام القبيلة هو مركز الكون الذي يجد في القبيلة طرقه المختصرة. لأنّ الفضاء الكوني والفضاء القبلي لا يتمايزان إلا بصعوبة، ومن هنا سهولة انتقال العقل البدائي من أحدهما إلى الآخر، بل تقريبًا دون أن يعي بذلك. وهكذا تسند الأشياء على العموم إلى هذا الاتجاه أو ذاك. لكن على الرغم من ذلك يظل التصنيف حسب الفروع والعشائر راجحًا بقدر استمرار قوتها؛ ولاترتبط الأشياء بالمناطق والاتجاهات إلا عبر الطوطيمات. وهذا ما يظل واضحًا لدى الزونيس، على الأقل فيما يخص بعض الكائنات. لكن ما تكاد التجمعات الطوطمية المتراتبة بشكل مذهل تتلاشى، وتعوض بتجمعات محلية متجاورة بعضها مع بعض على المستوى نفسه، حتى يصبح التصنيف بالاتجاهات عندئذ وحده ممكنًا[69].

وهكذا إنّ شكلي التصنيف اللذين قمنا بدراستهما، إنّما يعبران، حسب واجهات متعددة، على المجتمعات التي تشكلا داخلها؛ التصنيف الأول انتظم حسب الترتيب القانوني والديني للقبيلة، أما الثاني فحسب الانتظام المورفلوجي. فحين يتعلق الأمر ببناء روابط القرابة بين الأشياء، وبتشكيل أسر أكثر اتساعًا من الكائنات والظواهر، يتم ذلك باعتماد التصورات التي تقدمها العائلة، والعشيرة والفرع، انطلاقاً من أساطير طوطمية. لكن حينما يتعلق الأمر ببناء روابط داخل الفضاءات، فإنّ العلاقات المكانية التي يقيمها الناس داخل المجتمع هي ما يعتمد كمعالم مرجعية. في النظام الأول تقدم العشيرة نفسها إطارًا للتصنيف، أما في الثاني فيتم الانطلاق من الأثر المادي نفسه الذي تركته العشيرة على الأرض. لكنهما معًا يتأصلان في التنظيم الاجتماعي.

68 وما نزال نجد مثل آثار هذه الفكرة عند الرومان: *mundus* تعني في الوقت نفسه العالم والمكان الذي يجتمع فيه مجلس الشعب. التماثل بين القبيلة (أو المدينة) وبين الإنسانية ليست مجرد تعبير مبالغ عن الكبرياء الوطني. لكن مجموعة من التصورات التي تجعل القبيلة عالماً أصغرَ للكون.

69 في هذه الحالة كل ما تبقى من النسق القديم، هو إسناد بعض القوى للمجموعات الاجتماعية. هكذا فعند الكورني Kurnai كل مجموعة محلية تتسيد على ريح معين يفترض أنه يهب من جهتها.

IV

يتبقى أمامنا الآن أنّ نقدم نوعًا أخيرًا من التصنيف، على الأقل من حيث مبدؤه، وهو تصنيف يتسم بكل مواصفات النظامين السابقين، باستثناء أنّ مضمونه مستقل عن كل تنظيم اجتماعي. وأفضل عينة على هذا النوع وأكثرها إفادةً، يقدمها لنا النظام الفلكي، والتنجيمي، والهندسي، والأبراجي للعرافة الصينية. ويوجد وراء هذا النظام تاريخ ضارب في القدم؛ لأنّه بالتأكيد أقدم من الوثائق المؤرخة الأصيلة التي احتفظت لنا بها الصين. ففي مطلع عصرنا كان قد بلغ درجة كبيرة من التطور. وإذا ما سعينا إلى دراسته في الصين تفضيلاً، فذلك لا يعني أنّه موقوف على هذا البلد، إذ نجده معروفًا في كل بلدان الشرق الأقصى. فهو يستعمل من طرف السياموا، والكمبودجيين، والتبيتيين، والمنغوليين. فبالنسبة إلى كل هذه الشعوب إنّ ذلك يعبر عن «الطاو» tao، أي الطبيعة. وهو يوجد في أساس كل فلسفة ونحلة ما يدعى لدى العموم بالطاوية. إنّه ينظم كل تفاصيل الحياة في أكبر تجمع من الشعوب عرفته البشرية في العالم.

تحول الأهمية نفسها إلى هذا النظام، دون الدخول في تفاصيله، بحيث لن تسمح لنا بغير تسطير خطوطه الكبرى، التي سنكتفي بوصفها في الحدود الضرورية، التي تتيح إظهار مدى توافق هذه المبادئ العامة مع ما وصفناه إلى حدود الساعة.

وهذا النظام نفسه يتشكل من عدة مبادئ متداخلة.

وأحد هذه المبادئ الأكثر أهمية التي يقوم عليها هذا النظام، يكمن في تقسيم الفضاء حسب الاتجاهات الأربعة. فهناك حيوان يتسيد ويعطي اسمه لكل من هذه المناطق الأربع: تنين قبة السماء الزرقاء هو الشرق، الطائر الأحمر هو الجنوب، النمر الأبيض هو الغرب، السلحفاة السوداء هي الشمال. ولكل منطقة لون حيوانها، وحسب شروط متعددة ليس المقام مناسبًا لتفصيلها، فهي إما أن تكون مناسبة أو لا تكون كذلك. والكائنات الرمزية المناط بها هذا الفضاء، تتحكم علاوةً على ذلك في الأرض وفي السماء. وهكذا فإن تلاًّ أو شكلاً جغرافيًا يبدو شبيهًا بالنمر، هو نمر ومن الغرب: وإذا كان شبيهًا بالتنين فهو تنين ومن الشرق. وعلى ذلك الأساس سيعتبر تموقع ما مناسبًا، إذا ما كانت الأشياء المحيطة به موافقة لوجهاتها؛ مثلاً إذا ما كانت تلك الموجودة في الغرب قريبة للنمر، والشرقية الموقع مناسبة للتنين[70].

لكن كل فضاء في الحيز القائم بين كل اتجاه أساسي والاتجاهات الأخرى فهو يقسم إلى قسمين: ومن هنا تنتج قسمة من ثمانية أجزاء تناسب أنواع الرياح الثمانية. هذه الرياح الثمانية بدورها هي في علاقة مع ثماني قوى تُمثل بالحرف أو العلامة الثلاثية trigramme التي توجد في مركز بوصلة العرافة: أولاً نجد

70 إنّ الأمر أكثر تعقيدًا: ففي كل من المناطق الأربع تتوزع أبراج الثماني وعشرين كوكبة astérismes الصينية. (ونعرف أنّ الكثير من العلماء يسندون إلى هذه الكوكبات أصل تلك الموجودة في كل الشرق) وتتضافر المؤثرات النجمية والأرضية والجوية داخل النسق ككل، والذي يدعى فونغ-شوي Fung-shui أو «الريح والماء».

قوتي الطرفين المتقابلتين داخل البوصلة 1 و8 ويمثلان الجوهرين المتناقضين السماء والأرض؛ وبينهما تترتب القوى الست الأخرى: أقصد 1- الأبخرة، السحب، الفيوض، إلخ..، 2- النار، الحرارة، الشمس، النور، البرق؛ 3- السيل؛ 4- الريح والخشب؛ 5- المياه، الأنهر، البحيرات والبحر؛ 6- الجبال.

هذه إذن عدد من العناصر الأساسية مصنفة حسب النقاط المتعددة لدوارة الريح. أما الآن فتسند إلى كل نقطة مجموعة من الأشياء: خين khien السماء، المبدأ الخالص للنور، الكرة السماوية، إلخ.. وتُموضع جنوباً[71]. وهي "تعني" الثبات والقوة، الرأس، قبة السماء، الأب، الأمير، الاستدارة، اليشب، المعدن، الجليد، اللون الأحمر، الحصان الجيد، الحصان الهرم، الحصان الضخم، الأعرج، فاكهة الشجر، إلخ.. . وبصيغة أخرى إنّ السماء تفيد ضمنيًا كل هذه الضروب من الأشياء، مثلما هو الحال عندنا، حيث الجنس يدل على كل الأنواع التي يشتمل عليها. ثم هناك كيكن Kicun، وهو مبدأ أنوثي، مبدأ الأرض، الظلمة، ويتموضع في الشمال؛ ومنه تستخلص الدماثة، القطيع، البطن، الأرض، الأم، الملابس، المراجل، الحشد، السواد، والعربات الكبيرة، ألخ....."الشمس" التي تعني الولوج؛ ويعد ضمن مشمولاتها الريح، الغابة، الطول، العلو، الطيور، الأفخاذ، البنت الكبرى، الحركات من الأمام إلى الخلف، كل ربح يساوى 3%، إلخ. ولنكتف بهذه الأمثلة القليلة. لأنّ قائمة أنواع الكائنات، والأحداث، والصفات، والجواهر والأعراض المرتبة تحت خانة القوى الثماني هي فعلاً لامتناهية. إنّها تستنفد على نول غنوص أو سحر kabale مجموع ما في العالم. ويمارس القدامى وأتباعهم حولها تأملات لا تنتهي بقريحة لا تنفد.

وبجانب هذا التصنيف القائم على ثماني قوى، نجد تصنيفًا آخر يوزع الأشياء حسب خمسة عناصر، التراب، الماء، المعدن، النار. ولقد لاحظنا، علاوة على ذلك بأنّ الأولى من الممكن اختزالها للثانية، وذلك إذا ما أقصينا الجبال، وإذا ما قمنا بإدماج الأبخرة بالماء، والسيل بالنار، فإنّ التقسيمين يصبحان متطابقين تمامًا.

ومهما يكن من مسألة إن كان التصنيفان مشتقين بعضهما من بعض، أو انضاف أحدهما إلى الآخر، ففي كل الأحوال إنّ العناصر تلعب دور القوى نفسه. فليس فقط كل الأشياء تعود إليها، حسب الجواهر المشكلة لها أو تبعًا لأشكالها، لكن تعود إليها أيضًا الأحداث التاريخية، وحوادث الأرض، إلخ...بل إنّ الكواكب نفسها تنسب إليها: الزهرة نجمة المعدن، مارس نجم النار، إلخ.... من جهة أخرى، إنّ هذا التصنيف يرتبط بالنظام بأكمله من حيث إنّ كل عنصر على حدة، متموضع داخل تقسيم أساسي. إذ يكفي أن نضع التراب في مركز العالم، لكي يكون بمقدورنا أن نوزعه على مناطق الفضاء. وبالتالي إنّ هذه الأخيرة نفسها، تصبح جيدة أو سيئة، قوية أو ضعيفة، مولدة أو متولدة.

71 نتبع القائمة التي وضعها السيد غروت Groot . طبعًا ينقص هذا التصنيف كل ما يمكن أن يشبه المنطق اليوناني والأروبي. التناقضات، الانزياحات، التداخلات كل ذلك يوجد بشكل طافح داخل هذا التصنيف. ولكن ذلك يجعله ذا أهمية كبرى بالنسبة إلينا.

لن نتابع الفكر الصيني في آلاف انثناءاته التقليدية. فلكي يكيف الوقائع مع المبادئ التي يقوم على أساسها النظام، قام دون نصب بتكثير القسمات الأساسية والثانوية للأمكنة وللأشياء وتعقيدها. ولم يصب بالوجل من أكثر التناقضات وضوحًا. فمثلاً مر بنا أنّ التراب يوجد في الشمال، وفي الشمال الشرقي، وفي المركز. وذلك لأنّ الغاية من هذا التصنيف إنّما هي توجيه السلوك الإنساني؛ والحال أنّه بلغ هذا المراد، متجنبًا تكذيب الواقع إياه، بفضل هذا التعقيد نفسه.

يبقى أمامنا على الرغم من ذلك أن نفسر تعقيدًا أخيرًا لنظام التصنيف الصيني: ذلك أنّ الأزمنة وعلى غرار الأشياء، والأحداث، تمثل جزءًا منه. فتقابل الاتجاهات الأربع فصول السنة. بالإضافة إلى هذا كل منطقة تقسم إلى ستة أجزاء، وهذه الأجزاء الأربعة والعشرون تعطينا طبعًا الفصول الأربعة والعشرين الصينية. وهو تناسب لا غرابة فيه بالنسبة إلينا. فداخل كل أنظمة التفكير التي تحدثنا عنها، يكون فيها اعتبار الأزمنة موازيًا لاعتبار الأمكنة. فحيثما تكون هناك اتجاهات تسند الفصول إلى الاتجاهات الأربعة، الشتاء في الشمال، الصيف في الوسط، إلخ...لكن التمييز بين الفصول ليس سوى خطوة أولى في حساب وقت تقويم الأعياد الدينية. ولكي يكون هذا مكتملاً، تقوم الحاجة إلى افتراض زيادة على ذلك تقسيم الأدوار، السنين والأيام والساعات، التي تسمح بحساب كل امتدادات الوقت كبيرة وصغيرة. وقد بلغ الصينيون هذه النتيجة من خلال الإجراء التالي. فقد شكلوا دورين أحدهما من اثني عشر والثاني من عشرة؛ وكل من هذين القسمين له اسمه وطابعه الخاص، وهكذا كل لحظة من الزمن تمثل بمتغيرين وبخواص مأخوذة من دورين مختلفين[72] وهذان الأخيران يستعملان في تنافس سواء بالنسبة إلى السنوات أو الأيام أو الشهور والساعات، ومن ثمة بلغوا نظام قياس دقيق بما فيه الكفاية. ثم إنّ تركيبهما، يشكل دورًا ستينيًا[73] sexagésimal، لأنّه بعد خمسة أدوار من فئة الاثني عشر، وستة أدوار من فئة العشرة، يعود المتغيران نفساهما لكي يؤهلا الأزمنة نفسها. وعلى منوال الفصول نفسه، إنّ هذين الدورين بأقسامهما يرتبطان بدوارة الرياح. ومن خلال توسط الجهات الأربع في ارتباطها بالعناصر الخمسة، سيصل الصينيون إلى هذا التصور الغريب، بالنسبة إلى المعرفة السائدة، حول زمن غير متجانس، يرمز إليه بالعناصر، والجهات الأساسية، والألوان، والأشياء التي تدخل في حيزها، وفي مختلف الجهات حيث تسود التأثيرات المختلفة.

فضلاً عن أنّ السنوات الإثنتي عشرة للدورة الستينية تسند بالإضافة إلى ما سبق، إلى إثني عشر حيوانًا على النحو المتسلسل التالي: الفأر، البقرة، النمر، الأرنب، التنين، الأفعى، الفرس، العنزة، القرد، الدجاجة، الكلب، والخنزير. وتتوزع هذه الحيوانات ثلاثًا ثلاثًا على الجهات الأربع، ومن هنا أيضًا ترتبط قسمة الزمن هذه بالنظام العام. هكذا تقول نصوص مؤرخة في بداية عصرنا، إنّ السنة تزي «tzé» حيوانها هو الفأر، وهي تنتمي إلى الشمال وإلى الماء: السنة "wa" تنتمي إلى النار، ومن ثمة إلى الجنوب، وحيوانها هو

72 في الكلاسيكيات القديمة تدعى بالأمهات العشر، والأبناء الإثني عشر.

73 نعرف أنّ القسمة الإثني عشرية والستينية استعملت أساسًا لمقاييس الصينية للأدوار السماوية، وكذلك لتقسيم بوصلة العرافة.

الفرس". ولأنّ السنوات تشمل تحتها العناصر[74]، فهي أيضًا مشمولة تحت المناطق، التي تمثل بالحيوانات. إنّنا هنا بالتأكيد قبالة مجموعة من التصنيفات المتداخلة، والتي على الرغم من ذلك تحيط بالواقع عن قرب، بغرض قيادة السلوك على نحو مفيد[75].

يتحكم تصنيف الأنواع، والأزمنة، والأشياء، والأنواع الحيوانية، في كل الحياة الصينية. فهو المبدأ ذاته للعقيدة الشهيرة فونغ-شوي fung-shui، مما يجعله يحدد اتجاه البنايات، وتأسيس المدن والمنازل، وتنظيم المقابر؛ ويتحدد حسب هذه النسقية التقليدية ما إذا كان ينبغي أن نفعل في هذا المكان أشغالاً معينة أو لا نفعل، وهل نشرع في بعض الأعمال في هذه الحقبة أو تلك. ولا تعلل هذه الأمور فقط بأسباب تنجيمية، بل أيضًا انطلاقًا من اعتبارات مرتبطة بالساعات، والأيام، والشهور، والسنوات: لذلك قد يكون اتجاه ما مناسبًا في لحظة معينة، ويصبح غير ذلك في لحظة أخرى. كما أنّ القوى متآلفة أو متنافرة حسب الأزمنة. وهكذا فليس كل شيء غير متجانس في الزمان والمكان فقط، لكن أيضا إنّ هذه الأجزاء غير المتجانسة التي تشكل منها الوسط الزماني والمكاني، تتطابق، وتتضاد، وتصبح ذات قابلية، في إطار نسق واحد. وكل هذه العناصر اللامتناهية تتركب لكي تحدد جنس الأشياء الطبيعية ونوعها، واتجاه القوى في حركتها، والأفعال التي يتوجب إنجازها، مما يؤشر على فلسفة دقيقة وساذجة في الوقت نفسه. وهذا ما يقدم لنا حالة نموذجية لاشتغال الفكر الجمعي بكيفية تأملية وعالمة على موضوعات بدائية بشكل واضح.

وعلى الرغم من أنّنا لا نتوفر في الواقع على وسيلة للربط التاريخي بين النسق الصيني وبين أنواع التصنيفات التي درسناها سابقًا، فلا يمكن ألا نلاحظ أنّه يقوم على مبادئ الأنساق الأخرى نفسها. فتصنيف الأشياء تحت ثمانية رؤساء، وثماني قوى، يعطي تقسيمًا للعالم إلى ثماني أسر، قابلة للمقارنة -إذا ما تغافلنا مفهوم العشيرة الغائب في هذا النسق- مع التصنيفات الأسترالية. ونجد من جهة أخرى، ومثلما هو الحال عند الزونيس، تقسيمًا شبيهًا للفضاء إلى مناطق مركزية في أساس النظام التصنيفي الكلي. وهي المناطق التي تسند إليها أيضًا العناصر، الرياح، والفصول. وعلى منوال الزونيس نفسه أيضًا، لكل منطقة لونها وتخضع للتأثيرالغالب لحيوان محدد، يرمز إلى العناصر وإلى القوى وإلى لحظات الأزمنة. ومن المؤكد أنّنا لا نملك فعلاً أي وسيلة للبت فيما إذا كانت هذه الحيوانات يومًا ما طوطيمات، على الرغم من الأهمية التي حافظت عليها في بلاد الصين، عبر مفهوم الزواج الخارجي exogamie، من حيث هي سمة تمييزية للعشائر الطوطمية الفعلية، فلا يبدو مع ذلك أنّها حملت الأسماء المألوفة في تسمية المناطق والساعات. لكن من اللافت أنّه كان في أراضي سيام، وحسب كاتب معاصر[76] تحريم للزواج بين من ولدوا في السنة نفسها وتحت رمز الحيوان نفسه، على الرغم من انتماء هذه السنة لدورين اثني عشرين مختلفين؛ حيث إنّ

74 وهنا العناصر ليست لمرة أخرى سوى أربعة: إذ يتوقف التراب أن يكون عنصرًا لكي يتحول إلى مبدإ أولي. هذا الترتيب ضروري لكي يتحقق تناسب حسابي بين العناصر وبين الإثني عشر حيوانًا. تناقضات لانهائية.

Wells Williams, *The Middle Kingdom,* édition de 1899, II, p. 69 et s 75

Young, *The Kingdom of the Yellow Robe, 1896, p. 92* 76

علاقة الأفراد مع الحيوان المتعلقين به، تؤثر في العلاقات الزوجية على النحو نفسه الذي يتم به الأمر في المجتمعات الطوطمية. ونحن نعرف من جهة أخرى، أنّ الأبراج الصينية، واعتبارات العلامات الثماني تلعب دورًا هائلاً في العرافة النبوئية السابقة لكل الارتباطات الزوجية، صحيح أنّنا لم نجد أيًا من الكتاب الذين اطلعنا على أعمالهم في هذا الصدد، يورد صراحةً حرمة زواج فردين ولدا في السنة نفسها، أو في سنتين تحملان الاسم نفسه، ومع ذلك فمن المحتمل أنّ زاوجًا من هذا القبيل على الخصوص، يميل إلى الاتصاف بالبطلان. في كل الحالات، إذا لم يكن في الصين هذا النوع من الزواج الخارجي بين من ولدوا تحت طالع الحيوان نفسه، فليس هناك مجال للشك، في وجود علاقة شبه عائلية فيما بينهم. ويخبرنا السيد دولتييل M.Doltille أنّ كل فرد يشتهر بانتمائه إلى حيوان بعينه، ومن له الانتماء نفسه في هذا المجال، لا يجوز له أن يحضر جنازة أشباهه الآخرين.

وليست الصين البلد المتحضر الوحيد الذي نجد لديه على الأقل آثارًا لتصنيف يذكرنا بما لاحظناه في مجتمعات أدنى في سلم الحضارة.

لقد انتهينا إلى أنّ التصنيف الصيني هو وسيلة عرافة بالأساس. والحال أنّ هناك بين طرائق العرافة اليونانية والصينية تماثلاً لافتًا للنظر، يؤشر على إجراءات من الطبيعة نفسها فيما يتعلق بكيفية تصنيف الأفكار الأساسية. فإسناد العناصر والمعادن إلى الكواكب يعد ممارسة يونانية، وربما كلدانية، بالإضافة إلى كونها صينية؛ مارس هو النار، زحل هو الماء، إلخ... العلاقة ما بين أحداث معينة بكواكب خاصة، الاعتبار المتزامن للأزمنة والأمكنة، الترابط الخاص بين منطقة بعينها وبين لحظة خاصة من السنة، ومع نوع خاص من الأعمال، كل ذلك نصادفه في مجتمعات متعددة[77].. هناك أيضًا تناسب غريب بين التنجيم والفراسة لدى اليونان والصينين، واحتمالاً لدى المصريين أيضًا. ونظرية تأثير الأبراج والكواكب في أجزاء الجسم mélothésie zodiacale، والتي نعتقد أنّها ذات أصول مصرية، وهي تسعى لإقامة علاقة وطيدة، بين بعض أجزاء الجسم من جهة، وبين وضعيات فلكية، وبين مجموعة من التوجهات والأحداث من جهة أخرى. ويوجد في الصين أيضًا عقيدة شهيرة تقوم على المبدأ نفسه، حيث يرد كل عنصر إلى جهة أساسية محددة، وإلى برج بعينه، وإلى لون خاص، ويفترض في مجموع الأشياء هذه بدورها، أن ترتد وتتطابق مع أنواع من الأعضاء، التي تمثل مكمنًا للعديد من الأرواح، والانفعالات، وأجزاء متعددة يشكل اجتماعها «الجِبِلَّة الطبيعية». هكذا فمبدأ اليانغ الذي يمثل المبدأ الذكوري للنور وللسماء، تمثل الكبد أحشاءه، المثانة قصره، الآذان والمخارج نوافذه[78].الحال أنّ هذه النظرية الظاهرة العمومية، ليس لها فقط قيمة الغرابة، بل تتضمن أيضًا شكلاً من أشكال إدراك الأشياء. حيث يربط العالم بالفرد، مما يجعل التعبير عن الأفراد يتم في علاقة مع الجهاز العضوي الحي، وهذه بالضبط نظرية مفهوم العالم الأصغر microcosme.

77 ويطرح السؤال حول ما إذا كان هناك استلهام مباشر أو غير مباشر بين هذا الشعب أوذاك.

78 حسب بان كو Pan-Ku أحد كتاب القرن الثاني، الذي يعتمد كتاباً أكثر قدمًا منه.

وليس هناك مدعاة للغرابة في ملاحظة العلاقة بين العرافة وبين تصنيف الأشياء. لأنّ كل طقس عرافة مهما كان بسيطًا، يقوم على تجاذب وتعاطف مسبق بين مجموع من الكائنات، وذلك على أساس قرابة تقليدية تُتخذ علامة على حدث مستقبلي. بالإضافة إلى ذلك، إنّ الطقس العرافي لا يكون مفردًا؛ بل هو جزء من نظام كامل. فعلوم التنجيم لا تشكل مجموعةً معزولةً من الأشياء، لكنها توشج العلائق فيما بين المجموعات. وبالتالي فخلف كل نسق عرافة وتنجيم، يوجد ضمنيًا على الأقل نظام غير صريح للتصنيف.

بيد أنّه عبر الميثولوجيا، حيث ستظهر بجلاء أكبر، مناهج تصنيف مماثلة لما يستعمله الأستراليون وهنود أمريكا الشمالية، لكون كل ميثولوجيا هي في العمق تصنيف، يأخذ مبادئه من المعتقدات الدينية عوض التصورات العلمية؛ فتجمعات الآلهة ذات التنظيم المحكم، تقتسم الطبيعة مثلما تقتسم العشائر كل الكون. وهكذا توزع الهند الأشياءَ والآلهة، في الآن ذاته، بين ثلاثة عوالم توجد في السماء والجو والأرض، مثلما هو الحال لدى الصيني الذي يصنف كل الكائنات حسب مبدأي اليانغ واليين. فإسناد أشياء طبيعية معينة إلى إله ما، يرتد في النهاية إلى تجميعها داخل الخانة النوعية نفسها، وترتيبها في القسم نفسه؛ كما أنّ الجنيلوجيات والمماثلات تتضمن علاقات تناسق وارتباط وتبعية بين أقسام الأشياء التي تمثلها الآلهة. فحينما يقال إنّ زوس، أبو الإنسان والآلهة، وَلَّد أثينا المحاربة، وإلهة الذكاء، سيدة البوم إلخ.. فإنّ ذلك يفيد ارتباط مجموعتين من الصور من خلال علاقة بينهما. فكل إله يملك حلولياته ذات الأشكال المختلفة عنه هو نفسه، وعلى الرغم من أنّها تملك وظائف مغايرة، ومن ثمة قدرات مختلفة، وأشياء تمارس عليها هذه القدرات، فهي تظل مرتبطة بتصور مركزي أو راجح، كما هو حال النوع بالنسبة إلى الجنس، أو تنويعة ثانوية بالنسبة إلى نوع أساس. على هذا المنوال نجد بوسيدون إله المياه، يرتبط بشخصيات باهتة، وآلهة زراعية (أفاروس، ألويوس) آلهة الجياد (أكتور، إيلاتوس، هبوكون..) إله الحياة النباتية (فوتاليوس).

وهذه التصنيفات هي عناصر من الأهمية بمكان، فهي لعبت دورًا مهمًا في تطور الفكر الديني؛ لأنّ ذلك سهل اختزال تعدد الآلهة إلى وحدة، ومن ثمة فقد ساعدت على التحضير للديانات التوحيدية. والهينوتية hénothéisme[79] التي تتسم بها الميثولوجية البراهمية، على الأقل في اللحظة التي بلغت فيها درجة من التطورتؤهلها للميل إلى اختزال الآلهة بعضها لبعض بشكل مستمر، أي إلى حدود تلك الدرجة حيث يصبح كل إله يتوفر على جميع صفات الآلهة الأخرى وأحيانًا اسمها أيضًا. يتعلق الأمر بتصنيف غير مستقر، حيث يتحول النوع بسهولة إلى الجنس، والعكس أيضًا، لكن مع ميل متنام نحو الوحدة، وقد كان هذا من منظور معين، هو حال فكرة وحدة الوجود الهندية في المرحلة السابقة عن ظهور البوذية، وهو نفسه حال النزعة الشيفية والفيشنوية الكلاسيكيتين. ويُظهر بالمِثل السيد أوزنرM.Usner، التنسيق التدرجي لتعددية الآلهة اليونانية والرومانية، الذي يعد شرطًا أساسيًا (للوحدانية) الغربية. الآلهة المحلية الصغيرة والخاصة، تنتظم شيئًا فشيئاً تحت رؤساء أكثر عمومية، آلهة الطبيعة الكبار، الذين يميلون إلى أن يستغرقوا فيها. وسيستمر

79 وهي كلمة استعملها ماركس مولرMarx Müller خطأ للتعبير عن أشكال بدائية من البراهمية

تصور خصوصية الآلهة السابقة؛ مثلما تتعايش الأسماء القديمة مع أسماء الإله الكبير، ولكن فقط صفةً لهذا الأخير؛ لكن وجودها يتحول بالتدريج إلى وجود شبهي، إلى حينٍ لا تصمد سوى الآلهة الكبيرة، على الأقل في المثولوجيا إن لم يكن في الطقوس الدينية كذلك. يمكن القول إنّ التصنيف الميثولوجي حينما يكون نسقيًا ومكتملاً، وحينما يغطي كل الكون، فهو يؤذن بنهاية الميثولوجيات بالمعنى المباشر للكلمة. بان، وبرهمان، وبراجاباتي، هي أنواع عليا، وكائنات مطلقة وخالصة، أشكال ميثلوجية تقريبًا في فقر صورة الإله المتعالي المسيحي نفسه.

من هنا نكون قد اقتربنا تدريجيًا من الأصناف المجردة والعقلانية نسبيًا، التي تحتل قمة التصنيفات الفلسفية. وقد تبين أنّ الفلسفة الصينية، خصوصًا حينما تكون طاوية، كانت تتأسس على نسق تصنيف شبيه بالذي وصفناه. وعند اليونان أيضًا، ودون الخوض في تأكيد الأصل التاريخي النسبي لهذه المذاهب، لا يمكن أن نمنع أنفسنا من الانتباه إلى أنّ المبدأين الأيونيين الهراقليطيين، الحرب والسلام، ومبدأي النفور والمحبة لدى أمبادوقليس، يقتسمان كل الأشياء، مثلما هو الحال مع اليانغ واليين في التصنيف الصيني. كما أنّ الترابطات التي أقامها الفيثاغوريون بين الأعداد والعناصر، وبين الأجناس وأشياء أخرى أيضًا، لا بد أن تجعلنا نتذكر العلاقات ذات الأصول السحرية- الدينية magico-religieuse التي كانت لنا فرصة الحديث عنها سابقًا.علاوة على ذلك لقد كان العالم إلى زمن أفلاطون نظامًا من التجاذب والتعاطف المصنف تراتبيًا[80].

V

لا تشكل إذن التصنيفات البدائية بدعًا فريدًا لا مقابل له في ما تستعمل الشعوب المتحضرة من أساليب، بل يبدو على العكس من ذلك أنّ هناك ترابطًا بينها وبين التصنيفات العلمية الأولى، على الرغم من افتقاد إمكانية البت في اتصالها. وفي الواقع على الرغم من وجود اختلاف عميق بينهما على بعض الأصعدة، فذلك لا يمنع توفر الأولى على كل الخصائص الأساسية للثانية. فهي مثل تصنيفات العلماء، أنساق من التصورات المتراتبة. فالأشياء لا تنتظم عبرها على شاكلة مجموعات معزولة بعضها عن بعض، بل إنّ بينها علاقات محددة، ومجموعها يشكل كلاً واحدًا. زيادة على ذلك، لهذه الأنساق مثلما هو الأمر في الأنساق العلمية، غاية تأملية؛ فهي لا تتطلع فقط إلى تسهيل العمل، بل تسعى إلى الفهم، وإلى إضفاء المعقولية على العلاقات القائمة بين الكائنات. وانطلاقًا من اعتبار بعض المبادئ أساسية، يجد العقل نفسه في حاجة إلى ربط تصوراته بأشياء أخرى. هذه التصنيفات إذن مرصودة قبل كل شيء إلى ربط الأفكار فيما بينها، وإلى توحيد

80 تزخر الفلسفة الهندية بتصنيفات المقابلة للأشياء، والعناصر، والحواس، والأقانيم. ويمكن أن نجد تعدادها في *Allgemeine Geschichte der Philosophie, 1, 2, p. 85, 89, 95,* etc. جزء كبير من الأوبانيشاد يكمن في التأمل في الجنيالوجيا والتقابلات.

المعرفة؛ وبهذا المعنى يمكن التأكيد أنّها إبداع علمي يشكل فلسفة أولى للطبيعة[81] فلم يوزع الأسترالي العالم بين طوطيمات عشيرته، بغرض تنظيم ممارسته أو تبريرها؛ بل لأنّ تصور الطوطيم كان بالنسبة إليه مبدأً أساسيًا، فقد استلزم منه أن يموضع ويرتب على ضوئه وإزاءه كل المعارف الأخرى. يمكن القول إذن بأنّ الشروط التي رهنت تصنيفه البالغ القدم، لا بد وقد لعبت دورًا مهمًا في تكوين وظيفة التصنيف بوجه عام.

ونخلص من كل هذه الدراسة إلى الطبيعة الاجتماعية لهذه الشروط، وذلك على خلاف بعيد عما ذهب إليه السيد فرازر، في كون العلاقات المنطقية بين الأشياء هي ما مثل النموذج المرجعي للعلاقات الاجتماعية بين الناس، بينما في الواقع هذه الأخيرة هي ما مثل النموذج الأصلي للأولى. فحسب رأيه، إنّ تقسيم الناس حسب عشائر، يأتي تبعًا لتصنيفات سابقة للأشياء؛ والحال أنّهم صنفوا الأشياء بالأولى لكونهم ينقسمون إلى عشائر.

ولقد مر بنا كيف أنّ التصنيفات أقيمت على حسب النماذج الاجتماعية الأكثر قربًا وأساسيةً. بل إنّ هذه العبارة غير كافية. فالمجتمع لم يكن مجرد نموذج قد اشتغل على منواله الفكر الصِّنافي، بل بالأحرى إنّ أطره الخاصة هي ما استعمل مرجعًا للنسق التصنيفي. فأول المقولات المنطقية كانت في الواقع مقولات وفئات اجتماعية؛ وأول أقسام الأشياء كانت قبلاً أقساماً إنسانيةً اندمجت داخلها الأشياء. فبسبب انخراط الناس في إطار مجموعات، وتفكيرهم في ذاتهم من حيث هم كذلك فقد جمّعوا مثاليًا كل الكائنات، وقد كان شكلا التجميع متداخلين في البداية إلى حد عدم التمييز بينهما. فقد كانت الفروع أول الأجناس؛ والعشائر أول الأنواع. ونظرًا إلى الأشياء من حيث هي جزء مندمج في المجتمع، ومكانها داخله هو ما حدد موقعها في الطبيعة. بل يمكننا أن نتساءل حول ما إذا كان شكل الخطاطة التي تُقدم بها في العادة الأجناس، غير متعلق في جزء منه بتأثيرات من هذا القبيل. فمما يلاحظ في العادة أنّ هذه الأجناس تُتخيل على العموم باعتبارها متموضعة داخل وسط مثالي، في حيز يتصف على نحو ما بحدود دقيقة الوضوح. ومن المؤكد أنّ الأمر لم يكن اعتباطيًا، حين تمثل في الغالب التصورات على شكل دوائر متراكزة أو متخارجة، متداخلة أو متباعدة بعضها إزاء بعض، إلخ.. ألا يعود الميل إلى تمثيل التقسيمات المنطقية على شاكلة مناقضة إلى هذا الحد مع طبيعتها الفعلية، إلى كونها أُدركت في البداية على صورة مجموعات اجتماعية؟ ألم يسبق لنا أن عاينا التموضع المكاني للأجناس وللأنواع لدى مجتمعات جد مختلفة؟

وليس فقط الأشكال الخارجية للأصناف ما يتأصل في الاجتماعي، بل أيضًا العلاقات الداخلية الرابطة بينها. فلأنّ المجموعات البشرية تندمج بعضها في بعض، العشيرة الثانوية في العشيرة، والعشيرة في الفرع، وهذا الأخير في القبيلة، يصبح للأشياء استعداد للنظام نفسه. ومرد تناقص امتدادها بقدر انتقالنا من الجنس إلى

81 ومن هنا فهي تتميز بوضوح عما يمكن دعوته بالتصنيفات التقنية. ومن المحتمل أنّ الإنسان من البداية صنف الأشياء التي يتغذى عليها حسب الوسائل التي من خلالها يتحصل عليها: مثلاً الحيوانات المائية، الطائرة، البرية. لكن الارتباط الأولي بين المجموعات لم يكن نسقيًا. إنّها مجرد قسمات، وتمييز تصورات، لا لوائح تصنيف. بالإضافة إلى هذا إنّها تمييزات انخرطت في الممارسة بحيث أنّها لا تعدو تعبيرًا عن تجلياتها. ولذلك لم نتحدث عنها في هذا البحث الذي نسعى من خلاله إلى أن نوضح قليلاً أصول السيرورة المنطقية التي تعد أساس التصنيف العلمي.

النوع إلى الفصيلة أو التنويعة، إلخ...، هو ذلك التناقص في مدى الأقسام الاجتماعية بقدر الابتعاد من الأقدم والأشمل والاقتراب من المجموعات الحديثة العهد والأكثر تفريعًا. وإذا كان التعامل مع مجموع الأشياء تم على أساس أنّه وحدة، فبسبب النظر إلى المجتمع من حيث هو أيضًا كذلك. إنّه الكل، أو بالأحرى، الكل الوحيد الذي يرجع إليه كل شيء. وهكذا فالتراتبية المنطقية ليست سوى واجهة أخرى للتراتبية الاجتماعية، ووحدة المعرفة ليست بشيء آخر سوى وحدة الجماعة وقد امتدت إلى الكون بأكمله.

علاوة على ماسبق: إنّ الروابط الداخلية التي توحد سواء أعضاء المجموعة نفسها، أو مجموعات متعددة ومختلفة، تدرَك هي نفسها كروابط اجتماعية. ولنذكر بداية أنّ العبارات التي نصف بها إلى اليوم هذه العلاقات لها دلالة أخلاقية؛ لكن بينما لم تعد حاليًا سوى استعارات، فقد كان لها في المرحلة البدائية دلالة مباشرة. إذ أنّ أشياء القسم نفسه أو الصنف عدت حقيقةً ذات علاقة قرابة مع أفراد المجموعة الاجتماعية نفسها، وبالتالي، كأقارب فيما بينها. لقد كانت من «اللحمة نفسها»، ومن الأسرة نفسها. إنّ العلاقات المنطقية هي بشكل ما علاقات عائلية ومنزلية. أحيانًا أيضًا، وكما مر بنا، يمكن أن تقيم علاقة شبيهة من كل جانب بالعلاقة بين السيد والشيء المملوك، وبين الرئيس وتابعيه. بل لنا أيضًا أن نتساءل ما إذا كانت الفكرة الغريبة من وجهة النظر الوضعية، التي تقول بتفوق الجنس على النوع، تجد أصلها الأولي في هذه العلاقات. فمثلما تهيمن الفكرة العامة على الفرد حسب الواقعي، فإنّ طوطيم العشيرة يهيمن على العشائر الفرعية، وأيضًا على الطوطيمات الشخصية للأفراد؛ وفي الحالة التي يحافظ فيها الفرع على قوامه الأولي، فيكون له نوع من الأولية على القطاعات والكائنات الجزئية التي يشتمل عليها. فمثلاً، على الرغم من أنّ الفرد من قبيلة الفوتجوبالوك هو بالأساس فارتفوت وخصوصًا موافيلوك، فهو يبقى قبل كل شيء إما كروكيش أو غاموتش. وتحضر الحيوانات الستة التي ترمز للعشائر عند الزونيس، في تفوق وسمو أساسي قبالة العشائر الفرعية وإزاء كل الكائنات المتجمعة داخلها.

لكن ما سبق يسمح فقط بفهم كيفية تشكل مفهوم الأقسام أو الأصناف، وكيف تترابط فيما بينها داخل النسق نفسه، لكننا ما نزال نجهل القوى التي حثت الناس على توزيع الأشياء إلى أقسام حسب المنهج الذي تبنوه. فكون الإطار الخارجي للتصنيف يجد أصله في المجتمع، لا يتضمن ذلك بالضرورة بأنّ الكيفية التي استعملت بها هذه الأطر تجد تفسيرها في الأصول نفسها. فهناك إمكان قبلي لوجود دوافع من نظام مختلف أثرت في الطريقة التي تم من خلالها التقريب والخلط، أو خلق التمييز والتضاد بين الكائنات.

إنّ التصور الخاص جدًّا، الذي أخذت به الروابط المنطقية يسمح باستبعاد هذه الفرضية. فلقد رأينا للتو، أنّ هذه العلاقات شكلت على صورة علاقات عائلية، أو علاقات ارتهان واشتراط اقتصادي وسياسي؛ وبالتالي فالمشاعر نفسها التي توجد في أساس التنظيم الأسري المنزلي، والاجتماعي الخ.. هي ما تحكم أيضًا في عملية الترتيب المنطقي للأشياء. فهذه الأخيرة تتجاذب أو تتنافر على منوال البشر نفسه، وهم يترابطون بالقرابة، ويتضادون بالثأر. ويتداخلون مثل أفراد العائلة نفسها، وهم يندمجون بعضهم في بعض عبر فكر موحد. وما

يجعل أحدهم مرتبطًا ومرتهنًا بالآخر يتطابق على كل الأصعدة مع ما يجعل شيئًا مملوكًا يظهر أدنى درجة من مالكه أو الرعية مع سيدها. وبالتالي إنّها حالات نفسية تلك التي تولدت عنها هذه التجمعات، وهي حالات عاطفية واضحة وبينة. ومن هنا الصلة العاطفية بين الأشياء وبين الأفراد، التي على نولها يتم التصنيف.

وهكذا يمكن أن نصل إلى الاستنتاج التالي: من الجائز أن نصنف أشياء أخرى غير التصورات، وحسب قوانين مختلفة عن تلك الصادرة من العقل بشكل خالص. إذ يتوجب على التصورات لكي يكون لها استعداد التشكل حسب أسباب عاطفية، ألا تكون أفكارًا خالصةً، بل أن تكون هي نفسها من معمولات العاطفة. وفي الواقع، إنّ أنواع الأشياء بالنسبة إلى من ندعوهم بالبدائيين، ليست موضوعات للمعرفة، بل إنّها تتعلق قبل كل شيء بموقف عاطفي معين. وبذلك فإنّ كل ضروب العناصر الانفعالية تتضافر في التمثل الذي يقيمه لهذه الأنواع من الأشياء. ولا تمنح المشاعر الدينية لها فقط لونها الخاص، بل تسند إليها الصفات الأساسية التي تشكلها. فالأشياء هي قبل كل شيء، إما مقدسة أو دنيوية، طاهرة أو مدنسة، صديقة أو عدوة، ملائمة أو غير ملائمة[82]، مما يعني أنّ خصائصها الأساسية لا تعدو أن تكون ترجمة للكيفية التي تلامس بها الحساسية الاجتماعية. ولذلك فالاختلافات أو التشابهات التي تحدد طريقة تجمع الأشياء، ذات طبيعة انفعالية أكثر منها ذهنية. وهو ما يفسر سبب تحول طبيعة الأشياء بشكل ما تبعًا لتحول المجتمعات؛ لكونها تمس مشاعر الجماعات على نحو مختلف. وما ينظر إليه هاهنا من حيث هو متجانس تمامًا يعتبر متنافرًا بشكل عميق هنالك. فبالنسبة إلينا يتشكل المكان من أجزاء متماثلة ويعوض بعضها بعضًا. ولقد رأينا مع ذلك إنّ شعوبًا كثيرة تعتبره متمايزًا بشكل عميق جدًا تبعًا للمناطق. ذلك لأنّ لكل منطقة قيمتها العاطفية الخاصة. فتحت تأثير عواطف متباينة، ترجع إلى مبدإ ديني خاص، وتبعًا لذلك تصبح فضائلها نسيج وحدها في فرادتها sui generis، مما يميزها على كل ما عداها. وهذه القيمة العاطفية هي ما يلعب الدور الترجيحي فيما يخص كيفية تقارب الأفكار وتنافرها. وهي ما يمثل الخاصية الغالبة في عملية التصنيف.

لقد قيل مرارًا إنّ الإنسان تمثَّل الأشياء في البدء انطلاقًا من ذاته مرجعًا. وما سبق يسمح لنا أن ندقق ذلك، من خلال إظهار مكمن هذه المركزية الأنثروبلوجية، والتي أولى بنا أن ندعوها المركزية الاجتماعية sociocentrisme. لأنّ مركز الأنساق التصنيفية الأولى كانت هي المجتمعات لا الأفراد[83]. فهي تجسد هذا البعد الاجتماعي وليس الإنسان. وما من مثال يسند هذا الطرح بقدر هنود السيو الذين يحصرون بشكل ما كل العالم في المكان القبَلي؛ ولقد رأينا كيف أنّ الفضاء الكوني ذاته ليس شيئًا آخر سوى المجال الذي تحتله القبيلة وقد تم تمديده بعيدًا عن الحدود الواقعية. وبفضل الاستعداد الذهني نفسه اعتبرت شعوب متعددة عاصمتها

82 وإلى وقتنا الراهن تصنف الأطعمة عند المؤمن، إلى أطعمة ذهنية وأخرى خفيفة، ومن الواضح مدى ذاتية هذا التصنيف.

83 ولقد قدم السيد de la Grasserie، ودون أدلة، أفكارا شبيهة بما قدمناه في *Religions comparées au point de vue sociologique*, chap. III

السياسية أو الدينية مركزًا للعالم أو «سرته»[84]. أي حيث يوجد مركز الحياة الأخلاقية. وبسبب هذا أيضًا، وإن حسب ترتيبٍ مختلف للأفكار، اعتبرت القوة الخالقة للعالم ولكل الموجودات، هي نفسها الخالقة للمجتمع.

وهذا تفسير صعوبة تشكل تصور التصنيف المنطقي، مثلما أشرنا إلى ذلك في بداية هذا العمل. ذلك أنّ التصنيف المنطقي هو تصنيف مفاهيم. الحال أنّ المفهوم هو تصور مجموعة محددة من الكائنات؛ التي يمكن رسم حدودها على شاكلة دقيقة. على خلاف ذلك، إنّ العواطف هي بطبيعتها مختلطة وغير اضحة. وعدوى تأثيرها يشع بعيدًا عن نقط تولدها الأصلية، فيمتد لذلك على كل ما يحيط بها، دون إمكانية تحديد مدى قوة هذا التأثير ونهاية انتشاره. وحالات الطبيعة العاطفية تشارك ضرورة في الخاصية نفسها. فلا نستطيع لذلك معرفة أين تبتدئ وأين تنتهي؛ حيث يتداخل بعضها في بعض، فتختلط خصائصها إلى درجة لا يصبح معها ممكنًا تصنيفها بصرامة ودقة. ثم من جهة أخرى ينبغي علينا قبل التمكن من تدقيق حدود صنف أو قسم معين، أن نحلل السمات التي تميز الكائنات المشمولة في هذا الصنف. لكن العاطفة بطيعتها متفرعة حين تخضع للتحليل، أو على الأقل لها استعداد وقابلية سيئتان لهذه العملية، نظرًا لبالغ تعقدها، خصوصًا حينما تكون ذات أصل جمعي، فهي تتحدى الفحص النقدي العقلاني. إنّ الضغط الممارس من طرف الجماعة الاجتماعية على كل عضو ضمنها، يسمح للأفراد بأن يحكموا بحرية على التصورات التي أنجزتها الجماعة بنفسها واضعة فيها شيئًا من شخصيتها. وتكتسي هذه الصنائع الاجتماعية قداسة بالنسبة إلى الأفراد. وبهذا يمكن القول إنّ تاريخ التصنيف العلمي، هو في المنتهى تاريخ المراحل التي ضعف فيها العنصر الانفعالي الاجتماعي بشكل تدريجي. تاركًا المجال حرًا للفكر التأملي للأفراد. لكن عوض أن تتوقف هذه المؤثرات البعيدة التي قمنا بدراستها على الظهور راهنًا، فإنّها تركت خلفها أثرًا ما يزال حيًا ومستمرًا: إنّه إطار التصنيف نفسه، وكل هذه العوائد الذهنية التي بفضلها نتمثل الكائنات والوقائع على صورة مجموعات منتظمة ومتعالقة بعضها مع بعض.

ويمكن أن نعد ما سبق مثالاً نموذجيًا يظهر مدى الضوء الذي يمكن للسوسيولوجيا أن تسلطه على التكوين البدئي، ومن ثمة، على وظائف العمليات المنطقية. وما قمنا به فيما يتعلق بالتصنيف، يمكننا أيضا أن نجربه فيما يخص الوظائف والتصورات الأساسية الأخرى للفاهمة الإنسانية. ولقد سبق وأشرنا مرارًا كيف أنّ الأفكار المجردة نفسها المتعلقة بالزمان والمكان، في كل لحظات تاريخها، توجد في علاقة وطيدة وضيقة بالتنظيم الاجتماعي المقابل لها. المنهج نفسه يمكن أن يفيد في فهم المنوال الذي تشكلت من خلاله أفكار السببية والجوهر، وكل أشكال التفكير، إلخ... كل هذه الأسئلة التي تهتاج الميتافزيقيين والسيكلوجيين منذ القدم، ستصبح أخيرًا محررة من مكرورات القول التي يقفون عندها، في تلك اللحظة التي ستطرح في صيغة سوسيولوجية. فها هنا سبيل يستحق على الأقل أن يجرب اتخاذه.

---

84 ما هو مفهوم بالنسبة إلى الرومان وحتى بالنسبة إلى الزونيس، يبدو أقل إقناعًا حينما يتعلق بسكان جزيرة الفصح، الذين يدعون Te Pito-te Henua سرة الأرض، لكن الفكرة تظل لدى الجميع طبيعية تمامًا.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2016

جميع الحقوق محفوظة © 2016